@ketab_n
19.12.2014
سَمَاح صَادِق
ترانس
كندا
رواية
المصري

19.12.2014

ترانس كندا

سماح صادق

دار المصري للنشر والتوزيع

Twitter: @ketab_n

ترانس کندا

Twitter: @ketab_n

ترانس كندا
سماح صادق

تصميم الغلاف:
محمد عيد

المراجعة اللغوية:
إيمان الدواخلي

الطبعة الأولى أبريل ٢٠١٤

رقم الإيداع: 8226/2014
ISBN: 978-977-6378-91-9

المصري للنشر والتوزيع

المدير العام: **يوسف ناصف**

عمارات العرائس
المعادي الجديدة – القاهرة
+2 01064378376
+2 01146335098
info@elmasrypublishing.com
www.elmasrypublishing.com

© جميع الحقوق محفوظة للناشر وأي اقتباس أو إعادة طبع أو نشر فى أى صورة كانت ورقية أو اليكترونية أو فى وسيلة سمعية أو بصرية دون موافقة كتابية، يعرض صاحبه للمساءلة القانونية.

Twitter: @ketab_n

إهداء

إلى هؤلاء المغامرين الذين لايخشوَّن الوحدة
ولا يخافون في حريتهم لومة لائم!!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«إذا كنتم عبيدًا في الأرض وقيل لكم: ازهدوا في حرية الأرض، ففي السماء تنتظركم حرية لا توصف..

أجيبوه: مَن لم يتذوق الحرية في الأرض، لن يعرف طعمها في السماء»

ميخائيل نعيمة

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فيما قبل الهجرة...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

« واقف على حرف سور السطح العجوز
شابك حلمه في ديل طيارته الورق الملونة
كل الكبار...
بقوا صغيرين قوي.... فـ عينيه
دوشتهم الكذابة على ما بتوصل له
تكون اتحولت لنغبشات
بتزغزغ ودانه
الولد ده
أول ما بدأ يسمع صوتهم بوضوح
فلت الخيط من إيده...
وانطلق يجري
لغاية ما اختفى معاها
وسط السحاب »

الشاعر/ رامي يحيى

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

يوسف

على أحد مخارج المعادي(*)تربض اللجنة، يقلب العسكري ذو الملامح الريفية أكواب الشاي غير المكتملة، وفي الوقت الذي ينهمك فيه حضرة الضابط بمكالمة هامسة على تليفونه المحمول، يقف عسكري آخر في وضعية الانتباه أمام سيارة الشرطة، وتبدو أذنه كجهاز تصنت متيقظ لهمسات سيادة الملازم وتأوهاته. على الجهة الأخرى، يقف الأمين وبيده علبة كشري، ذهب ليحضرها وليخلي الجو لسيادة الملازم بعد أن رن محموله، فهو يعرف جيدا هذه المكالمات الليلية، تحتاج إلى ذهن صافٍ وبال رائق ومجال خالٍ من المتطفلين.

يتناول ملاعق الكشري بتأنٍ، ويشيرلسيارات الأجرة ويوقفها من باب الـ (غلاسة)، وينظر إلى الجهة الأخرى من وقت لآخر ليعرف هل انتهى حضرة الضابط من مكالماته أم لا، ليعود لكرسيه بجانبه ويتناول كوب الشاي ليحبس به آثار الكشري.

(*) **المعادي**: حي راقي بالقاهرة يسكنه الكثير من الأجانب، يتميز بوجود الكثير من الفيلات والقصور.

Twitter: @ketab_n

يستوقف ميكروباص، فيلاحظ على صوت سائقه أنه مُخدر،يعطيه جنيها ويطلب منه كارت شحن بـ ٥ جنيهات.. يتأفف السائق، فينهرهه قائلا: طب انزلي يا روح أمك.

فيبتسم السائق ابتسامة بلهاء ويرد: يا باشا هو أنا قلت حاجة... عيوني يا باشا... اللي أنت عاوزه يا باشا... الزباين مستعجلة.

ينظر لزبائنه استنجادًا بهم، فلا ينبس أحدهم بحرف، فيكمل هو:هانزلهم آخر الشارع قوام قوام.. واشتريلك كارت الشحن وارجع هوا.

يشير له الأمين بحركة من يده أن يمر، ينطلق وهو يلوح:تسلم يا باشا.

يلقي الأمين بنظره إلى الجهة الأخرى، فيجد حضرة الضابط قد أنهى مكالمته، يعتصر علبة الكشري في معلقته الأخيرة، ثم يرمي بالاثنين إلى جانب الرصيف، ويعبر ليجلس بجانب الضابط، بعد أن يأمر العسكري: اعمل لنا شاي تاني يا بني عشان ده برد.

يعود الضابط لصوته الطبيعي وهو يسأله: كان ماله الحيوان ده؟ مُشيرًا للجهة التي ذهب فيها الميكروباص، فيرد الأمين: الواد فوانيسه الورانية مكسورة من كام يوم، وقلت له هاخدك مخالفة أمن ومتانة راجع مبرشم ابن المرة، مش بدل ما يصرف على البرشام يصلح عربيته.

يرد الضابط: وماجبتهوش ليه؟ كنا علقناه هنا واتسلينا شوية بدل ما احنا قاعدين كده.

Twitter: @ketab_n

«بيصعب عليّ، أصل الواد ده أمه كانت بتبيع فجل وجرجير قدام بوستة المعادي و...» وهكذا كان يقضي حضرة الضابط الغريب معظم لياليه في سماع حكايات عن سكان المنطقة من الأمين، الذي تم اختياره جيدًا من سكانها، ليكون على علم شديد بكل من فيها وكل ما يفعلونه.

«والواد ده وهو صغير كانوا مطلعين عليه اسم حباظة....»

يقطع حديثه صوت سيارة سريعة قادمة من داخل المعادي، يقفا ليتبينا قصتها، فتمر بهما بأقصى سرعة سيارة جيب سوداء لها زجاج فاميه، ملقية بكل الحواجز البرتقالية التي وضعوها للتحكم إلى جوانب الطريق. يتبينان ملامح سائق شاب وامرأة بجانبه، يرسلان إشارة عبر اللاسلكي عن السيارة المسرعة، فتأتي إشارة بمتابعتها لأنها ارتكبت حادثًا منذ دقائق في شارع النصر، فيركب كلاهما بسرعة في سيارة «الأتاري» ويذهبان في أثرها. يسأله الضابط: « تعرف العربية دي...»

«مش عارف والله يا باشا... بس بشبه عليها»

يحدق فيه الضابط غير مصدق ويسأله: «بتاعة مين؟»

يجيبه الأمين: «بتاعة واحد كده ساكن في شارع اللاسلكي »

كان الأمين يكذب، فهو يعرف السيارة جيدا ويعرف صاحبها وقصته الطويلة، والتي يضاف لها حلقة جديدة كل يوم من مصائبه التي تضر البعض ويستفيد منها البعض الآخر، وسيادة الأمين بالطبع من المستفيدين.

Twitter: @ketab_n

كان يعرف جيدا قصة صاحب السيارة (يوسف المنياوي)، ولكنه لم يرد الإفصاح عنه، فبحاسته المادية التي لا تخطئ، هذه المعلومة قد تكون اليوم ببلاش، ولكنها في الغد ستساوي المال.. الكثير من الأموال، سيدفعها أبو المحروس للتغطية على ابنه.

فـ(يوسف) هو ابن رجل الأعمال والسياسي الشهير(عاصم المنياوي).

توقف يوسف بأحد الشوارع المظلمة في حي المقطم، بعد أن تأكد أن لا أحد يتابعه. ظل يهمس بالشتائم وهو يحاول الاتصال بأخيه الأكبر على التليفون المحمول، تبدو الفتاة بجانبه في غيبوبة كاملة، يرفع وجهها بيده قائلًا «فوقي بقا يا بنت الكلاب وديتيني في داهية الله يحرقك».

بعد فترة طويلة يأتي صوت أخيه (أمير) نائمًا: «ألو»

«الحقني يا أمير»

ينتبه أمير ويجيب بنفاد صبر: «ها عملت ايه المرة دي؟! يابني هو أنت مصايبك مابتخلصش»

يتردد في أن يقول له ما حدث، ولكنه يقوله على أية حال.

«صحّي أبوك والحقوني»

«إيه يا بني إيه اللي حصل»

«انت عارف البت كاثي صاحبتي»

Twitter: @ketab_n

«الأسبانية؟!!»

«أيوه الزفتة»

«ها...»

«أغمى عليها في العربية وجيت أفوقها... خبطت راجل كان بيعدي في الضلمة قدام شارع اللاسلكي»

«وانت في القسم»

«لا.. أنا فكيت»

«طب وايه المشكلة دلوقتي ارجع ع البيت. لو حد كان شاف العربية نبقى نتصرف ونشوف واحد من رجالتنا يشيلها»

«المشكلة أن كاثي لسه معايا ومش عاوزة تفوق، دي شكلها ماتت»

«ماتت! يا نهار أبوك أسود.. ماتت من ايه أنت عملت لها حاجة؟»

«لا والله ماعملتش حاجة بس دي شكلها كده أوفر دوز(*)» يصرخ «ياعم ادیني بابا»

«ويعني هو بابا هيعمل لك ايه دلوقتي.. اخلص من البت دي بأي حل وتعالى على البيت وبعدها يحلها الحلال»

يغلق الخط.. يفكر يوسف لبرهة، يعود إلى جسد الفتاة الملقى بجانبه، يتحسس نبضها ويحاول سماع دقات قلبها.

(*) **أوفر دوز**: الموت نتيجة جرعة مخدرات زائدة

Twitter: @ketab_n

إنها حتى لا تتنفس! يدير السيارة ويتجه إلى أعلى المقطم، يوقف السيارة بأحد الأماكن الممتلئة بالقمامة، ينزل من السيارة ويتلفت خائفا، ثم يذهب للجهة الأخرى يسحب جسد صديقته من السيارة ويلقيه بجانب أكوام الزبالة، ويعود لمقعده عائدًا إلى المعادي عن طريق الكورنيش.

في الطريق يقف على الجانب وينزل من سيارته مرة أخرى، ويقف لدقائق أمام النيل يسترجع أحداث الليلة الماضية وكل ماسبقها من أحداث. في هذه النقطة تحديدا، كان يقف هو وايمي لآخر مرة، صدمته رغبتها في الانفصال عنه. كيف كان غبيًا وأحبها لهذه الدرجة؟! هو الذي لا يصدق امرأة أبدا، كيف تركها تدخل حياته ويتعود على وجودها؟ لقد كانت أهم من المخدر، الذي لم يعد يستطيع الحياة بدونه، أهم من أهله ومن دراسته.. لقد واجه أباه برغبته في الزواج منها، وكان على استعداد أن يحارب العالم حتى يكونا معا، في نفس الوقت الذي تفكر هي في الانفصال عنه بسبب سمعتها والشائعات ومستقبلها وعملها.. كم كان غبيا أن يضعها على قائمة أولوياته!

مع نور الصباح، يفيق من ذكرياته ويعود، يصل للبيت، يركن سيارته ويصعد إلى شقته، ويلقي نفسه على السرير وينام. تبدو كغمضة عين تلك الساعات الثلاث، قبل أن يسمع طرقات قوية على باب شقته، فيظن أنه البوليس، ولكنه يفاجأ بأبيه، وأخيه يقف وراءه، فيفسح لهما الطريق للداخل، ويستقبل فيض الشتائم على لسان أبيه، ويشير له أخوه من الخلف أنه لم يقل له أي شيء.

Twitter: @ketab_n

«طبعا ما أنا مافيش ورايا غير يوسف باشا ومصايب يوسف باشا.. انطق يا زفت ايه اللي حصل امبارح؟»

ينظر يوسف لأخيه، فيهز رأسه أنه لم يقل لأبيه أي شيء، فيلتفت أبوه ويصفع أخاه:

«طبعا وسيادتك عامل له قرني».

يغضب الأخ ويبدأ في الاعتراض، وهو يقسم بأنه لا يعرف ولم يفعل أي شيء.

«طب يا بابا خلاص... اهدا بقى أنا هاحكيلك، بس قل لي إيه اللي وصلك»

«أنا عاوز أعرف الحقيقة ومالكش دعوة باللي وصل لي»

«خبطت واحد بالعربية امبارح»

«تاني... يا يوسف... تاني!»

«طيب أعمل ايه طيب؟ الدنيا كانت ليل وهو كان ماشي في الضلمة، وأنت عارف المعادي كلها ضلمة»

«وحياة امك.. ومين البنت اللي كانت معاك؟»

يندهش يوسف

«بنت؟!»

«أيوا بنت... الأخبار جت أنك كان معاك واحدة... مين؟ وجايبها من أنهي داهية؟ وبنت ناس ولا كلبة شارع... ما أنا عارفك».

Twitter: @ketab_n

ينسحب المخدر تدريجيا من دماغ يوسف، ويتملكه صداع قوي، يحاول إيقاف صراخ أبيه بأي طريقة، فيقرر أن يقص عليه القصة كاملة.. وعندما يصل للنهاية، تفاجئه الدموع في عين أبيه!.. يحاول أن يعتذر ويسترضيه، فينهره بشدة ويذهب.

في المساء، تخبره عيون الأب بأن المباحث قد وجدت جثة الفتاة الأسبانية، وأنها مجرد ساعات وسيعرف الجميع من ألقى بها في هذا المكان. نظرة أخرى تخبره أن الرجل الذي صدمته السيارة قد مات، وها هو أمين الشرطة يقف ببابهم مدعيا أنه لا يستطيع أن يعطل القانون أكثر من ذلك، ليقبض عليه أو يقبض ما فيه النصيب.

وكان أحد رجال أبيه يرمي بسيارته، بعد غسلها وخلع لوحاتها في مكان بعيد على الطريق الصحراوي،بعد أن أشعل فيها النيران، في الوقت الذي كان كاتب القسم يكتب محضرا مزورا بسرقة سيارة يوسف بتاريخ يسبق تاريخ الأمس بعدة أيام.

في نفس اللحظة، كان أخوه يمد يده ليعطيه تذكرة سفر إلى كندا.

«هتسافر الليلة»

Twitter: @ketab_n

إيمان

تدور الأحداث بسرعة خلال ساعة واحدة قبل سفرها.. تجمع حقائبها، تعدو على السلالم، توقِف تاكسيا، وأثناء ركوبها، تتفاجأ بصاحب بازار من الذين عملت معهموحاول أن ينصب عليها ذات مرة، ولكنه يرجوها هذه المرة أن تصطحبه في التاكسي الخاص بها على أن يدفع الأجرة! بعد ركوبه، يدعي عدم وجود فلوس كافية معه، ويطلب منها أن تدفع له قبل أن تنزل لأنه سينزل بعدها. تتساءل أي حمقاء هي حتى تترك هذا الغبي يركب معها من الأساس!

اختناق مروري، والتاكسي واقف لا يتحرك، سائقه سمج يتعامل معها بطريقة غير مهذبة بدون مبرر، يطلب منها السائق النزول لسبب لا تتذكره، تنزل، فينطلق التاكسي يحمل معه حقيبتها وتليفونها المحمول.. تتوه في شوارع عشوائية مسدودة، ويبلغ بها الغضب مداه، وهي تحاول تذكر رقم الرجل النصاب.

Twitter: @ketab_n

٠١٢١٤٠

٠١٢١٤٢

تصحو وهي ترتجف وتكاد تبكي، تهدئ نفسها بأنه مجرد حلم، وأنها لن ترى هذا الرجل مرة أخرى، تأخذ نفسا طويلا وتهمس «اهدي يا إيمي.. اهدي.. انتي عندك مقابلة مهمة جدا النهاردة.. أهم مقابلة في حياتك كلها.. ده مجرد حلم.. فوقي»

بعد رحيل يوسف، وكل ما كان يمنحها وجوده من رفاهية، أصبحت مصر كابوسا حقيقيا بالنسبة لها.. حواري عشوائية ضيقة ممتدة كثعابين، تلتهم كعوب الأحذية وتملأ أذيالها بمياه المجاري الطافحة.. المرور المتأزم دائما، والمواصلات وإهاناتها الصباحية المتكررة.. تسلط الذكور في كل مكان، بداية من سائق التاكسي الجاهل متعاطي المخدرات، وحتى المدير الحاصل على بكالوريوس وماجستير غير مفيدين بالمرة.

وهي امرأة تكره الوقوف في الطوابير، امرأة تعفُّ نفسها عن أن تشحذ قوَّتها وقُوتها وقرارها واستقرارها من غيرها، امرأة تعشق الحرية.. وهذا البلد يغرق في الذل.. أهله يشحذون لقمتهم، ورغبتهم في الزواج، ومساكنهم الشعبية، وكل الطرق لم توصلهم إلى شيء وكل الأبواب باتت موصدة في وجوههم. أي جنون هذا الذي يبقيها هنا ويجبرها على تمضية حياتها في طابور طويل؟

ارتدت تي شيرت وجينز عاديا، وأخذت إحدى الروايات في يدها، لأنهم أخبروها أن ساعات الانتظار طويلة.

Twitter: @ketab_n

دخلت بعد التفتيش، وكانت الصالة مليئة بأصحاب الطلبات، معظمهم أمهات وزوجات يرغبن في زيارة ذويهم. استغرقت في كتابها حتى تم النداء على اسمها، ذهبت إلى الشباك، فسألتها السيدة:

«انتي إيمان سلاّم؟»

ردت بإنجليزية سليمة «نعم سيدتي»

«لماذا تريدين الذهاب إلى كندا؟»

«فقط للسياحة... إجازة رأيت أنني استحقها بعد سنوات طويلة من العمل»

فكرت أن تقول لها أنها ربما تقابل صديقا قديما، ثم تراجعت خوفا من سؤالها ومن يكون هذا الصديق، فيتطلب الأمر معلومات لا تملكها.

صديقة من خبيرات السفر قالت لها نصيحة ذهبية للسفارات والمطارات: «الإجابة على قد السؤال.. لا كلمة زيادة ولا كلمة ناقص».

«أين ستقيمين هناك؟»

«في فندق «لوجيت» وملحق بالأوراق ورقة حجز الفندق»

«هل تنوين زيارة مدن أخرى غير «مونتريـال»؟»

«نعم، ربما أزور «أوتاوا» لأنها العاصمة، وربما «تورنتو» و«شلالات نياجرا» أيضا »

Twitter: @ketab_n

«ما هي المدة التي تخططين لقضائها في كندا؟»

«أعتقد أنني سأبقى هناك ثلاث أسابيع، ومرفق حجز تذكرة الذهاب والعودة»

«قلتِ لي ماذا تعملين هنا؟»

«أنا أعمل في مجال السياحة، في أحد الفنادق الكبرى بالقاهرة، ومرفق جواب يثبت هذا، ويثبت دخلي الشهري، ولقد وافقوا على إجازتي بالفعل»

ابتسامة بسيطة متوترة، بعد أن أحست أنها أطالت في ردها على السؤال.

«هل تخططين للزواج هناك؟»

تضحك، وتظهر مفاجأتها بالسؤال، وتجيب: «بالطبع لا!»

تمسك الختم وترفعه عاليا، تنظر في عيني إيمان مباشرة وتقول: «موافقة... أهلا بكِ في كندا»

ويرسم الختم علامة الموافقة على أوراقها..

«فجأة شعرت أنه قد نبت لي جناحان. لماذا كنت أتصور أن السفر صعب للغاية؟ لا أصدق أن لدي الآن فيزا لزيارة كندا، لن أصدق إلا عندما يصلني جواز السفر وأراها بعيني، والآن.. أين حاتم؟ يجب أن أبحث عنه وأخبره أني ذاهبة إلى حلا... ربما يريد أن يرسل لها شيئا معي! الفرحة لا تسعني، لا أصدق أنني سأخرج من مصر أخيرا، وربما أرى يوسف مرة أخرى».

Twitter: @ketab_n

جلست إيمان تقلب جواز السفر في يديها بعد وصوله بالبريد، وترى التماعات الفيزا التي تحمل اسمها. لم تتخيل أنها بعد أن تصل إلى هذه الخطوة قد تفكر بالتراجع عن قرارها! ما الذي تخافه تحديدا؟ سألت نفسها كعادتها القديمة، هل تخاف السفر؟ أم تخاف ألا تجد يوسف وتنتهي رحلتها بالفشل؟ هل تريد السفر والخروج من مصر فعلا؟ أم تريد البقاء هنا؟! هل ستعود أم لا؟ كلها أسئلة لم تكن تستطيع إجابتها، أو ربما لا توجد إجابة صحيحة ونموذجية لمثل هذه الأسئلة، في الوقت الحالي.

وكعادتها، همست لنفسها «ماعنديش حاجة أخسرها» حينما سمعت خبطا قويا على باب البيت، وأصوات صراخ وتأوهات قوية. جرت لتفتح، فرأت إحدى زميلات السكن محمولة، بعد أن تمزقت ملابسها وعليها آثار ضرب واعتداء واضحة. لم تفهم إيمان من غمغمات الناس ماحدث، وأدخلت الفتاة إلى غرفتها، وأحضرت بعض المياه الدافئة والقطن لتطهير جراحها. كانت الفتاة منهارة تماما ولا تقوى على الكلام، ولكن بين غمغماتها فهمت إيمان أن الفتاة تم الاعتداء عليها في إحدى المظاهرات على سلم نقابة الصحفيين.

لم تكن إيمان متابعة جيدة للسياسة، فهي نادرا ما تقرأ الجرائد أو تتابع الأخبار، ومعظم قراءاتها روايات تأخذها إلى عوالم أخرى. لم تهتم كثيرا عندما سمعت عن تعديل الدستور والاستفتاء والتوريث، وكل هذه المصطلحات الغريبة. لاحظت ظهور بعض العلامات الصفراء تحمل كلمة «كفاية» في وسط البلد، وأخبرها أصدقاؤها أنها حركة شعبية جديدة، تطالب بخروج مبارك من الحكم.

Twitter: @ketab_n

ولكنها لم تكن ترى أي جدية في هذه الأفكار، فهي منذ ولدت ولا تعرف لمصر رئيسا غيره، وبعملها في مجال السياحة تدرك أن هناك فجوة كبيرة في البلد، فالكبير كبير جدا وبشكل فج ووحشي، والصغير صغير للغاية أقرب لحشرة، يمكن لأي كبير من هؤلاء أن يدهسها دون أن يلاحظ.

جروح صديقتها في ذلك اليوم وتعريتها في الشارع ومحاولاتهم لفض عذريتها كانت القشة التي قصمت ظهر إيمان وتسببت في نفاد صبرها. إذا كانت صديقتها الصحفية، التي كانت تتباهى بكونها «سُلطة رابعة»(*) قد حدث لها ذلك.. صديقتها، التي تعتبرها «بنت ناس جدا» طالها كل هذا الأذى.. فما الذي قد يحدث لها هي عند أول احتكاك بهؤلاء الوحوش؟.. هي، (الغلبانة)، الوحيدة بلا ظهر، التي لطالما رأت أُسرًا من شارعها القديم تُجر بكاملها إلى الأقسام، من أجل الضغط على أحد أفرادها لتسليم نفسه.. نساء كانت قصصهم تجري على الألسنة في همهمات وهمسات محسوبة، حول تعريتهن واغتصابهن للضغط على أزواجهن للاعتراف بجرائم لم يرتكبوها أو ارتكبوها بالفعل! ولكن ماذنب نسائهم وبناتهم في هذا؟! وهل يمكن أن يجرجرها يوما سلوك أبيها أو أحد إخوتها إلى هذا المأزق؟

كانت إيمان تعرف مدى هشاشة وضعها. تاريخها كله استطاع أبو يوسف جمعه في يومين على الأكثر، وفي الحقيقة لم يكن لديها شيء تخسره سوى ما هددها به أخوه الأكبر بعد ذلك.

(*) **سلطة رابعة**: اسم يطلق على العاملين بالصحافة والإعلام، لأنهم يقومون بالرقابة على السلطات الثلاثة الأخرى بالدول «التشريعية، التنفيذية، القضائية»

Twitter: @ketab_n

تشويه وجهها بماء النار. كانت إيمان لا تملك في مصر سوى وجه رائق جميل، وابتسامة عذبة تمنحها للجميع.. طاقة حلوة هي التي ساندتها في عملها بالسياحة والعلاقات العامة لسنوات طويلة. لم تكن تملك غير نفسها في هذا العالم، ولم تكن على استعداد أن تخسر نفسها، في بلد لا يحترم النفس البشرية.

أكدت حجز التذكرة، وسهرت مع حاتم وبقية أصدقائها على مقهى «التكعيبة» تخبرهم أنها مسافرة... وربما لن تعود أبدا. في ورقة صغيرة، منحها حاتم رقم وإيميل حلا، وصندوقا بداخله هدية.

ودّعت الجميع، ربما لآخر مرة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هاني

كانت ديان تعرف لماذا أطفأ هاني الضوء!

إنها تفهم جيدا أنه لا يريد أن يريها حجرته، التي لم تكف النقود التي ادخرها لتجديدها مع البقية من بيت عائلته الصغير. كانت تعرف أنه قام بذلك من أجلها، فعندما حضرت كانت رائحة الطلاء تملأ المكان، وكان واضحا إنهم لم يستطيعوا سوى تجديد الحجرة والمطبخ والحمام، لذلك كان يرفض رفضا باتًا أن يدخلها حجرته، رغم إلحاحها في دخولها. تلك الحجرة التي داوم على الدردشة معها ما يقرب من العام وهو جالس فيها.

«يا إلهي!»

لمحت الشقوق الكثيرة، قبل أن يسارع هو بإغلاق الضوء. أسعدها أنه أصر على الذهاب إلى مكان آخر بعد تناولها الغداء مع عائلته، ولم يطع إلحاح أمه ونظراتها المتوسلة للبقاء. يبدو وكأنها استعدت طويلا لهذه الدعوة، ولكن ديان كانت تبدو غير مرتاحة..

Twitter: @ketab_n

كانت خائفة ومرعوبة، فبمجرد أن رأت الشقوق في غرفة هاني، صار بداخلها هاجس قوي أن هذا البيت سينهار في أي لحظة. «مسكين يا هاني، الآن أعرف جيدا ما الذي يدفعك للهروب من هذا العالم» هكذا همست ديان بينها وبين نفسها.

«ترواسون سان زوتيك سيفوبليه»(*) ينطقها واضحة هذه المرة، تماما كما علمته، فتبتسم هي وتتعلق بذراعه أكثر، حتى يغوص كوعه تماما في صدرها. يتحرج من التصاقها به أمام أعين سائق التاكسي، وينظر له في المرآة ليرى هل يلاحظهما أم لا، فيجده منصرفا تماما إلى الطريق. أمام البوابة يمنحه المطلوب من الفلوس المتبقية من حساب البار، والتي كانت قد ناولتها له أمام النادل وأمام عيون الجميع، وهو يراجع «الشيك»، بحيرة من اكتشف ضياع حافظة نقوده..نفس الحيرة التي أعاد بها النادل الباقي، وهو لا يعرف لمن يقدمه؛ لها أم له هو، فاتخذت هي القرار بالنيابة عنهما، وغادرت لتتركه يعطيه باقي الورقة البنية، ليترك له بعض البقشيش، ويدس الباقي في جيبه.

تفتح البوابة وتنتظره أن يدخل، تتعلق به مرة ثانية، وتلقي بنفسها عليه بمجرد أن ينغلق باب المصعد، وتقبله بنهم، فتتصاعد مع أنفاسها رائحة أكواب التكيلا وعطر دولتشي جابانا. يستطيع الآن أن يحلل جيدا كل ما يصدر عنها، لم يكن هذا ممكنًا في الأيام الأولى، فقد كان جائعا للجنس، ومحموما بالرغبة، حيث لا مجال لاستعادة عطر أو اكتشاف طعم. يفتح باب الشقة، فتدخل مترنحة.

(*) ٣٠٠ شارع سان زوتيك من فضلك»

Twitter: @ketab_n

مشكلتهم الكبري أنه لا يسكر، فهو بطبيعته لا يحب الخمر، وعندما حاول مجاراتها وجرب، لم يكن للخمر أي تأثير عليه..ويا للدهشة! حتى عندما طاوعها وأكثر من الشراب، كانت النتيجة أنه رقد مريضا ليومين متتاليين، ولكن وعيه لم يغب خلالهما للحظة. هي تشرب كثيرا، وبالخمر تتغلب على كل مخاوفها، وبمجرد أن يغيب وعيها تفتح عقلها وذراعيها للعالم وكأنها تحتضنه. يتخيل أحيانا كم مرة قد تكون عادت في صحبة رجل ما، بعد أن خدرت نفسها بهذا الشكل، لتستيقظ فتجد نفسها وحدها، وقد نسيت بالفعل كل أحداث الليلة الماضية.

عندما دخل هذه الشقة لأول مرة، كان من السهل عليه اكتشاف بصمات من مروا قبله في أركانها. وعندما تعرت أمامه لأول مرة، كانت علاماتهم أوضح من أن تستطيع إخفائها، مهما حاولت.

اشتركت في قمر بيث القنوات العربية من أجله، وتعلمت بعض الكلمات العربية، قرأت في التاريخ وحدثته عن عبد الناصر والسادات وأم كلثوم، وجاءته سعيدة تغني «أسمر يا اسمراني» لعبد الحليم.. ليتها قطعته عن مصر وأهلها ولم تشترك في هذه القنوات! ولكن هل عدم اشتراكها كان سيمنعه من متابعة أخبارها؟!وهل يقتل البُعد.. الحنين؟!

إنه عالم صغير جدا، هذا ما أدركه في رحلة بحثه على الإنترنت، بعد حصوله على الليسانس وعودته إلى قريته بعد سنوات الدراسة في المدينة. لم يكن هناك حل لأوقات فراغه سوى الاستغراق في القراءة

Twitter: @ketab_n

والبحث، بعد أن اتخذ بالفعل قرار الهروب، وتوقف الأمر على إيجاد خطة محكمة. وكانت أسهل الطرق هي ما يفعله العديد من بلدياته العاملين بالغردقة وشرم الشيخ، الزواج من أجنبية تنتشله من قريته وترمي به في أحد بلدان العالم الأول. فوضعهم المالي لا يسمح بتكلفة الهروب على أحد القوارب المتجهة لإيطاليا أو اليونان، ولا أمل حتى في الحصول على وظيفة بإحدى القرى السياحية بلغته العرجاء.

وهنا جاء دور غرفة الدردشة حيث قابلها.. امرأة تعاني تقلبات سن اليأس، يتعدى عمرها الخمسين، لديها مسحة جمال غربية شوهتها التجاعيد، عاشت قصة حب طويلة انتهت بالفشل منذ فترة قصيرة، عندما تركها شريكها إلى امرأة أصغر وأكثر جمالا.

تنتزعه ديان من أفكاره وتسحبه من يده للفراش، تبدأ في تقبيله وهو مغمض العينين، يبتسم في قلبه عندما يجد صورتها تظهر في مخيلته، يهمس بالعربية «وحشتيني»، ويقبلها بقوة ورغبة أكبر الآن.. يعلو معها إلى سماوات رحبة تسعهما، بعد أن طردته الأرض وأهلها. يفتح عينيه، فتهرب هي بابتسامتها الدافئة، وتفاجئه ملامح وتجاعيد الأخرى.

يمد يده ويغلق الضوء سريعا.

لكي يستطيع أن يكمل ما بدأه.

Twitter: @ketab_n

حلا

«حبيبي...

أكتب إليك من هنا، وهنا هو غرفتي المطلة على أشجار كثيرة وأماكن لانتظار السيارات. من موقعي على السرير تحديدا، أرى من شبّاكي شجرة كريسماس كبيرة، وسماء تملؤها الغيوم.

أعرف أن مكاني الطبيعي ليس هنا، وأن أحلامي هي التي أتت بي، كما حدث للمدعو سانتاياجو في روايتي المفضلة «السيميائي»(*)، وأعرف أن أحلامي هي ما سيوصلني إليك، لأنني في الحقيقة اكتشفت، كما اكتشف سانتاياجو، أن أسطورته الذاتية لم تكن في الكنز أو في السفر، بل كانت في لقائه فاطمة.

انتظرتك كثيرا، وأحببتك بظهر الغيب، وقابلت قبلك الكثيرين، ولكن خيباتي العديدة أكدت لي شيئا واحدا، أنه لاأحد مثلك أنت، لا أحد يشبه أحلامي غيرك.

(*) رواية شهيرة ومن الأكثر مبيعا في العالم للكاتب «باولو كويليو»

Twitter: @ketab_n

أشعر بوحدة شديدة من غيرك، وأشعر طوال الوقت برغبة شديدة في الكتابة إليك، إليك أنت وحدك، فأنا أحدثك طوال الوقت، وإن لم تكن موجودا لتسمعني.»

حلا

ديسمبر ٢٠٠٤

* * *

كان هذا هو إيميل حلا الأخير، بعد سفرها للدراسة بجامعة «كونكورديا»(*). ستبدو رسائل حلا التالية أكثر اقتضابًا، وستتحول تدريجيا إلى رسائل قصيرة مليئة بالاعتذارات.. ستضحك عليها حلا كثيرا عندما تراها بعد ١٠ أعوام من الآن، ولكن يبدو أن خطة أهلها في إبعادها عن حاتم وإرسالها للدراسة بالخارج قد نجحت تماما.

حلا فتاة جميلة ومطيعة، لم تخذل أهلها أبدا، سوى مرة واحدة فقط.. عندما أحبت ذلك الولد. ولكنها مراهقة، وما بينهما لا يتعدى كونه «لعب عيال».صحيح لم تنجح حيل الأهل في إفساد العلاقة، ولكن خيار السفر والدراسة بالخارج كان كفيلا بأن يغير حياتها كليًا، فهي لم تنسه هو فقط، بل تقريبا نسيت أهلها أيضًا. على أية حال... لم تكن علاقتها بأهلها على مايرام. كان لدى أسرة حلا بيت كبير، كبير لدرجة أن يستطيع كل فرد من أفراد هذه الأسرة أن يختفي في غرفة منه ولا يراه الآخر، اشتراه أبوها بعد سنين طويلة من العمل في الخليج.

(*) من أكبر جامعات مونتريـال الانجليزية

Twitter: @ketab_n

بعيدا عن مصر قضت حلا سنوات مراهقتها الأولى، وكانت حياتها مغلقة للغاية، لا تخرج عن الحي الذي تعيش فيه، أو أصدقائها من أبناء الجالية المصرية، حتى عادت إلى مصر للالتحاق بالجامعة الأمريكية، والتقته. كان حاتم يلعب الموسيقى مع فرقة من فرق «الأندر جراوند»(*) بوسط البلد، كان يشبه كثيرا أحلامها، ولكنه لا يشبه أبدا ما يحلم به أبواها.. فلقد ضحى أبوها بمصاريف الجامعة الأمريكية الباهظة، لأنه كان يأمل أن تقابل ابنته ابن وزير أو رجل أعمال كبير وتقع في حبه، وكانت أمها تحلم بأن ترى صور ابنتها في صفحات المجلات الاجتماعية، واحدة من طبقة راقية، كافحا كثيرا ليصلا إليها. بهرها حاتم بحواراته الممتدة على المقهى، عن الحرية والقيم اليسارية والموسيقى والفن.. اختياراته في القراءة ومناقشاته معها كانت مذهلة.. صحبها في البداية لمعارض الفن التشكيلي بدار الأوبرا والزمالك.. دار بها على مكتبات القاهرة، وكل الأتيليهات والمراكز الثقافية.. أول لمسة يد، وأول رعشة.. أخذها حاتم إلى مناطق في روحها لم تزرها من قبل.. وبعد أن سكرت من حبها له، دعاها إلى شقة أحد أصدقائه. لم تتردد حلا، فدعوات الحرية لا زالت ترن في أذنها، والهرمونات ومشاعر الحب تتلاعب برغباتها. أصبحت لقاءاتهما المختلسة في أي مكان يتوفر لهما عادة، وأصبحت حلا مدمنة لوجوده حولها، حتى شم أبوها أخبار العلاقة، وتأكد من جدية الأمر ووصوله لمرحلة لا يمكن تجاهلها.

(*) **فرق الاندر جراوندز**: فرق تحت الأرض، أو فرق الشارع وأطلق عليها هذا الاسم لأنها فرق مستقلة لا تتبع الدولة، وتعرض حفلاتها في مسارح وأماكن صغيرة، وتعبر عن حركة فنية مستقلة ومتمردة على الأنظمة.

Twitter: @ketab_n

عندما تحدث مع حلا، فاجأته جرأتها.. وكأنه لم يعد يعرف ابنته! إنها تبوح بحبها، وتكاد تعترف بالعلاقة بينهما أو تلمح لها. قبل أن تُكمل، أراد أن يعيد سيطرته على الموقف، فطلب منها أن يرى هذا الشاب.

«يعني هو جاي النهاردة مع أهله؟!»

«يا ماما هو جاي يتعرف عليكم لوحده، والمرة الجاية يجيب معاه أهله لو تحبوا...»

«يعني هو منين أصلا؟»

«ياستي شوفوه الأول واقعدوا معاه واسألوه كل الأسئلة دي...»

لم يصدق أبواها هيئة الولد الرثة، وشعره الطويل المشعث، وملابسه المتسخة، ونحافته الشديدة، وعينيه اللتين تشيان بكمية الحشيش التي قد تعاطاها ليستطيع أن يواجه هذا الموقف.

كانت حلا قد توسلت إليه أن يهتم قليلا بنفسه في ذلك اليوم، ولكنه رفض أن يغير من طبيعته من أجل أي شخص، وأخبرها أن أهلها يجب أن يتقبلوه كما هو. لم توجه إليه الأم أي أسئلة.. ولا الأب كذلك. ساد صمت مطبق طوال اللقاء، حاولت حلا أن تكسره بعدة جمل ولم تفلح.

كان حاتم محاطًا بمظاهر البذخ المصطنع التي تملأ البيت، وهاله حجمهالكبير ونظافته، وكان مندهشا أن يخرج مثل هذا البيت المبهرج فتاة برقة حلا وعفويتها.

Twitter: @ketab_n

كانت نظرات الأب والأم المتفحصة والحادة كالسكاكين أكبر من قدرة الشاب على التحمل، فغادر بعد عشر دقائق، لتنفجر حلا في البكاء، وينفجر أبواها في الصراخ. «انتي اتجننتي في عقلك ولا إيه؟ إيه اللي انتي جايبهولنا ده؟!»

«هو انتوا حتى حاولتو تتكلموا معاه أو تعرفوه كويس... انتوا حتى ماقولتلوش أهلا»

«أهلا لمين؟ ده لا شكلنا ولا ينفعلك؟ انسي الموضوع ده تماما!»

«بس يا بابا والله حاتم إنسان كويس»

«كويس لنفسه بس يبعد عن بنات الناس... انتي متخيلة إن ده يقدر يتجوزك أو يعيشك يوم واحد حتى»

فتكمل الأم «ده عاوز يستغلك، وداخل على طمع»

«إزاي بتحكموا عليه كده؟ انتو تعرفوا إيه عنه عشان تقولوا عليه كده؟!»

«مش عاوزين نعرف.. ده شكله صايع وحشاش، كل اللي بيعرف يعمله في حياته شوية المزيكا والتنظير اللي أكل بيهم عقلك..»

«أقسم بالله يا حلا لو فضلتي تعرفي الولد ده لا انتي بنتي ولا اعرفك... ولا في مصاريف جامعة ولا في عربية... وتقعدي في البيت وما تخرجيش منه إلا واحنا معاكي! أنا مش باربيكي كل ده عشان أرميكي الرمية دي، ده مستحيل!»

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

نهى

«ها إيه رأيك يا نهى؟»

«وهي لسه هيبقى لها رأي، ده عريس كامل من كله.»

«برضه البنت لازم تكون مرتاحة... مرتاحة يا نهى؟»

«والله يا بابا... أنا محتاجة شوية وقت أفكر.. ومحتاجة كمان.. بعد إذنك طبعا لو نتقابل كمان مرة.. محتاجة يعني أعرفه أكتر.»

«وماله يا بنتي.. عين العقل.. ده برضه اختيار حياة ومحتاج دراسة، خدي وقتك».

طاهر عريس ذو مواصفات قياسية، طويل وعريض ووسيم، يتحدث ثلاث لغات بطلاقة، ويدرس الآن لنيل درجة الدكتوراه في الطب، لديه بيت وسيارة وعمل مستقر، كل هذا وهو لم يتخط الأربعين بعد. ولكن لماذا لم يتزوج شخص بهذه المواصفات حتى الآن؟!

Twitter: @ketab_n

ولماذا عندما رغب في الزواج بحث عن امرأة من مصر وليست من كندا، وهو الذي عاش طوال عمره تقريبا هناك؟ولماذا يلجأ لزواج صالونات، ويبدو وكأن أهله هم أصحاب الاختيار وليس هو؟ شيء ما لم يكن مريحا في قصة طاهر.. جزء غامض وغير واضح، هو ما جعل نهى تتردد قبل أن ترد بالموافقة.

ربما يكون تدين أهله الزائد، وخوفها من حبسه لها في الغربة وتحكمه فيها، فيأمرها بارتداء الحجاب، والتزام المنزل، ويعاملها كجارية أتى بها من بلاد العالم الثالث إلى الجنة ولذلك عليها أن تطيع أوامره..ربما كان خوفها من فكرة السفر والغربة، والحياة وحدها دون أهل أو سند أو ظهر تحتمي به! لم تكن نهى مدركة تماما سر الوساوس التي تأكل قلبها، وعندما قابلته في المرة الثانية، تحدثا كثيرا حول مخاوفها هذه. وكانت المفاجأة أن طاهر ليس متدينًا كما أهله، ولكنه يحبهم ويحترمهم كثيرا، وهذا ما يدفعه إلى طاعتهم وتحقيق رغبتهم في الزواج، وأن ضمن اشتراطاته هو شخصيا في زوجة المستقبل ألا تكون مرتدية للحجاب، وأن تكون مرنة ومتفتحة العقل. تكلما سويا عن الموسيقى والأفلام والاهتمامات المشتركة، كانت صحبته ممتعة، رجل مثقف ومتحضر، ولكن هناك شيئا ناقصا.. ذلك الميل الفطري بينهما، حالة الانجذاب التي قد تولد بين رجل وامرأة!عللت ذلك ببداية التعارف وعدم التعود، وأقنعت نفسها بأنها قد وجدت ضالتها، لذلك جاءت موافقتها بنعم، وبلا تردد، في المرة الثانية. في فندق كبير، احتفلت العائلتان بالعُرس، سافر العروسان فور انتهائه لقضاء شهر العسل بماليزيا.

Twitter: @ketab_n

كانت الرحلة طويلة ومرهقة، ولذلك لم تقلق كثيرا عندما مرت الأيام الأولى دون أن يقترب منها. بعدها دفعته نظرات الشك من ناحيتها للتجربة معها أكثر من مرة، ولكن يبدو وكأن هناك خطأ ما.. خطأ لا يمكنها بخبرتها القليلة في عالم الجنس والرجال فهمه.. وكان هناك اختياران لا ثالث لهما، أن تعود إلى بلدها مطلقة ووحيدة وعذراء قبل أن تكمل شهر العسل، أو تكمله بشكل أو بآخر، وتسافر من ماليزيا إلى كندا كما خططا، وتبدأ حياتها كما قدر لها أن تكون، وربما يوما ما سيمكنها أن تفهم.

اختياران أحلاهما مُر... فكرت كثيرا في الأمر، في العودة للصفر، وربما ما تحت الصفر.. في مصر ووضعها كـ «مطلقة».. وفكرت في ذلك الشيء الذي لطالما حلمت به، «الحب»، وهل ستجده يوما مع طاهر؟ وماذا ستفعل في أيامها القادمة معه؟

في حالات مثل هذه، ليس هناك إجابة صحيحة وإجابة خاطئة. في حالات مثل هذي، كل ما تحتاج إليه هو الصمت، تسوية الأمور داخلك، وتركها تمر.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

لبدايات دائما ما تشي بالنهايات، مهما حاولت ادعاء غير ذلك، فهذه الثمرة من تلك الشجرة، ستحمل دوما نفس اللون والرائحة، لذلك لا تهرب من الماضي، ولا تحاول تغييره، فقط تصالح معه، فهو الطريق الوحيد الذي لا يمكنك السير فيه مرتين، وهو الطريق الذي قطعته لتصل إلى اللحظة الحاضرة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هجرة أخرى...

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

«إن كان ولابد تبيع نفسك...

بيع نفسك فرط لِميت واحد..

قالك... أحسنلك.. تتبعتر...

أحسن ما يلمك جيب واحد...

خد آس كوتشينتك وارميها...

سيبها تخسَّر مين يلاقيها...

عمر ما حد هيكسب بيها...

علشان دايما...

ناقصة الواحد...»

مصطفى ابراهيم

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

مونتريـال

بعد عدة أكواب من البيرة، وجنس بلا رغبة حقيقية، أغرق في نوم عميق. صوت العاصفة يتداخل مع حلمي، الذي يبدأ بقفزنا من الطائرة بالباراشوت، مجموعة كبيرة ملونة، يختلط على وجوهنا الخوف والقلق بالسعادة حتى نصل للأرض بسلام. يتحول صوت الرعد خارج النافذة فجأة إلى صوت قصف داخل عقلي، إنهم يقصفون المدينة التي أحيا بها، وأنا أجري في كل اتجاه، أحاول إيجاد مخبأ أحتمي به أنا ومجموعة من الأطفال، إنهم ليسوا أطفالي – أهمس في عقلي – ولكني أمسك بيد كل واحد منهم وأبتسم، فتنبت لي عشرات الأذرع، وأبدو كأخطبوط يتعلق بكل ذراع طفل. يدق جرس الإنذار في المدينة، فيفزع الأطفال ويتناثرون في كل اتجاه.

أفتح عينيّ، فأجد المنبه المزعج مستمرًا في الدق، وشوارع المدينة يغطيها المطر، أمطار الربيع التي تعيد الحياة لكل شيء.

«لا تأمن لامرأة ولدت في الربيع»

Twitter: @ketab_n

هكذا قلت له بالأمس، ولم يصدقني كعادته، لذلك اتخذت قراري بهجرته، فلم أعد أحتمل البقاء في هذا المكان أكثر من ذلك.

في الصباح الباكر، خرج إلى العمل كعادته. مع إغلاقه لباب البيت، قمت من سريري، وبدأت في ترتيب أشيائي للرحيل، تمر بمخيلتي قصة قرأتها ذات يوم، حول امرأة دائمة التشاجر مع زوجها، تقرر بشكل يومي تقريبا أن تهجره، ولكنها وبعد أن تقضي نهارها في إعداد حقيبتها، سرعان ما تخبئها عندما تسمعه يدير مفتاحه في الباب، وتظل على هذا الحال تدور في دائرة مفرغة(*).

ولكني لست مثلها، فلقد عشت عدة سنوات بهذا البيت، أرى في نظراته وتصرفاته توقعه لهروبي، ولم أفعل! لم يكن في نيتي الهرب أبدا. كنت أتوقع منذ يومي الأول فراقا محترما، نجلس فيه معا على مائدة متواجهين، ونتفق سويا -ربما لأول مرة في تاريخ حياتنا الزوجية- على شيء..ألا وهو الفراق.

ولكن يبدو أن عدة سنوات كانت كافية لـ «أتأمرك»(**) وأتخذ هذا القرار وحدي، بل وأنفذه حيث لا يتوقع أحد، ليكون هديتي لنفسي يوم ميلادي. فتحت الدولاب، فتذكرت أني بحاجة إلى بعض الصناديق، أحتاج أيضا إلى قهوتي الصباحية. ارتديت ملابسي، ونزلت إلى أقرب «ديبا-نار»(***) اشتريت القهوة وبعض الشيكولاتة،

(*) قصة (روتين) من مجموعة «انطباعات مجمدة وطوارئ» للكاتبة / دنيا ماهر

(**) كلمة شائعة بمعنى يتشبع بالثقافة الأمريكية

(***) كلمة فرنسية كندية تعني محلات البقالة الصغيرة التي تفتح لأوقات متأخرة، وتبيع القهوة وتذاكر االلوتو والسجائر والجرائد وبعض الأطعمة السريعة

Twitter: @ketab_n

وفوقهما منحني الرجل عدة صناديق كرتون مطوية. حملت أشيائي، وعدت للمنزل أهرول تحت المطر.

«لأبدأ الآن.. لا وقت لدي»

فتحت الصناديق وقوّيتها بالشريط اللاصق العريض، ثم درت بعينيّ في كل زوايا البيت، «من أين أبدأ؟!»..

«الكتب.. كتبي هي الأهم» مجموعة صغيرة، ولم يكن من الصعب جمعها، فهي مكومة سويًا في خزانة مع أوراقي الهامة، وبعض الاسطوانات والأدوات المكتبية. بعدها ملابسي، الكاميرا، الكمبيوتر، كل الأسلاك الخاصة بهذه الأشياء، ثم أحذيتي الصيفية والشتوية، «بشكير» صنع في مصر، ولوحة من اليابان، وإطار به صورة جماعية تضم أصدقائي المقربين – أتذكر أنني يجب أن أتصل بهم لاحقًا وأخبرهم عن هروبي.. فأضحك- وإطار آخر لصورتي مع زوجي، وتمثال نِصفي لنفرتيتي. «ماذا أيضا؟» مستحضرات التجميل، فرش الأسنان والشامبو، من يصدق أني أستطيع أن أعيش بدون زوج، ولا يمكنني الاستغناء عن هذه الأشياء البسيطة! فكرت في التخلص منها بالمرة والخروج دونها، ولكني شعرت أن شراءها من جديد سيكون مكلفًا، خصوصا في الأيام القادمة، والتي لا أعرف كيف ستكون، صعبة أم سهلة.. لقد اتخذت قراري، وانتهى الأمر.

«ماذا أيضا.. ماذاااا؟.. لاشئ!!.. هل يعقل؟ كل هذه السنوات في هذا البيت، وليس لي فيه سوى هذه الكراكيب، التي لم تملأ سوى صندوقين وشنطتي سفر؟!»

Twitter: @ketab_n

لقد تغيرت كثيرا منذ وصلت إلى هنا.. ربما لم أكن لأتغير بهذا الشكل لو تزوجت عربيا، ولكن معاشرتي لرجل غربي جعلت هناك فجوة واسعة بين ما كنته وبين ما أنا عليه الآن، وتعلمي للغة مختلفة تماما، خلق مني إنسانة جديدة، حتى أن أفكاري نفسها أصبحت بلغة مختلفة، همسي بيني وبين نفسي لم يعد عربيًا.

ليت هناك صور فوتوغرافية للعقل، لأستطيع أن أرى كم التغير الذي طرأ على أفكاري، وإن كانت صوري الجديدة تشي بالكثير، ومعظم تصرفاتي أيضا. لم أعد تلك البنت التي وصلت إلى مونتريال تجر شنطتي سفر، تاركة وراءها كل شيء، وهي مدركة تماما احتمالية عدم عودتها إلى مصر أبدا.. شنطتا سفر ليس بهما أشيائي الحبيبة، أو حتى كل ملابسي، ليس بهما سوى ما خف وزنه وغلا ثمنه مما مضى من حياتي.

أتذكر، وكأنه اليوم، نظرات المارة المندهشة للفتاة القوية التي تجر حقيبتين تبدوان ثقيلتين جدا، صاعدة منحدر شارع «سان ديني»، متجهة إلى شارع «شيربروك»، باحثة عن «بارك سان لوي». لا أحد ممن استوقفتهم عرف العنوان الذي أبحث عنه، فالعنوان المفترض في شارع «برنس آرثر»، ولكنه تحول مع فرنسية المدينة إلى «بغنس آغثووغ». وبعد أن أضعت فترة لا بأس بها، وصلت إلى باب الفندق، لتفتح لي ديان بابتسامتها الجميلة وإنجليزيتها الرقيقة، لتشعرني بأنها خالتي أو عمتي التي حللتُ عليها في زيارة مرتبة سابقا، فتندفع في الحديث وتصطحبني إلى غرفتي الصغيرة الجميلة ذات الذوق الراقي، المطبخ والحمام والحمام الاحتياطي، والكمبيوتر وصالة

Twitter: @ketab_n

الطعام وغرفة المعيشة.. كان الفندق في الحقيقة عبارة عن بيت صغير لطيف ونظيف وحميمي للغاية، كان أول بيت أسكنه في هذه المدينة المزدوجة الشخصية، وسببًا لوقوعي في حبها. ولكنه حب ككل حب مر بحياتي، لم يقف عائقا بيني وبين الفراق يوما ما.

«سأترك الستائر.. ستائري، نعم، أنا من اخترتها وأحضرتها ولم تعجبه على أي حال، كان يعيب على لونها الوردي، فهل آخذها؟! لا.. مجرد مجهود ضائع، سأتركها هنا، علامة على مروري يوما»

كانت ستائري أول وآخر مساهمة لي في هذا البيت. بعد أن اختلفنا حولها، أيقنت تماما عدة حقائق رسمت علاقتي معه من البداية وحتى هذه النهاية، ومنها أن ذوقنا ليس واحدًا، وأن هذا البيت ليس بيتي، وأنني لن أستطيع أن أعلق لوحة أو أفرش سجادة، وبالتالي... لن أستطيع أن أعيش هنا لفترة طويلة.. ليس لأني أهتم كثيرا لوجود هذه الأشياء، ولكن لسبب آخر أهم، هو أنني ليس لديّ حرية اقتنائها أو عدم اقتنائها طالما كنا معا!لذلك، ظل هذا البيت بحوائطه العارية وأثاثه البسيط أقرب لمخزن منه إلى بيت.

أشيائي اكتملت تقريبا، نظرة أخيرة في كل الجوانب، كدت أن أنسى قواميسي، القواميس التي جئت بها من مصر، وكنت سعيدة بفكرة أنني سأبدأ بتعلم لغة جديدة، ولم أعرف أن هذه الفكرة صعبة للغاية وستعذبني كثيرا ولسنوات، حتى أستطيع التحدث بالفرنسية، فلقد اكتشفت بعد وصولي أن مستواي في اللغتين متدني للغاية، وأنني أبدو هنا كامرأة قروية ساذجة لا تستطيع التعبير عن نفسها.

Twitter: @ketab_n

بالتحديد في يومي الثاني، وبعد ٦ ساعات من التسكع المتواصل في شارع سانت كاثرين، سعيدة بفستاني الملون القصير، لا أنوي على شيء غير مشاهدة المحلات والأسعار، كانت أهم معلومة توصلت لها في ذلك اليوم هي أنني فعلا.. من المستحيل أن أعيش هنا بدون إجادة الفرنسية. وفي الحقيقة، مهما كان قرب مونتريال من نيويورك، أو قوة العلاقات الأمريكية – الكندية، أو استخدام جميع مدن كندا الأخرى للإنجليزية، إلا أن حظي قد رماني في «كيبيك»(*) وما أدراك ما كيبيك؟ المقاطعة الكندية الفرنسية!

في البداية، لم أدرك حتى الفرق بين كندا وأمريكا، ففي عقلي –كنت أرى في الخرائط–أنهما تقريبا شيء واحد، وأنه لا فرق بين الأمريكين والكنديين، ولكني تداركت هذا الخطأ الشائع بعد أن تفوهت به أمام أحد الكنديين، الذي رد بحساسية شديدة:

«لكن نحن لسنا أمريكيين»

كان يبدو غاضبا جدا عندما وصفته بالأمريكي، فأردت أن أخفف الموقف، فسألته:

«في ظنك ما هو الاختلاف الأكبر بين الكنديين والأمريكيين؟» أجاب بسرعة: «نحن شعب مؤدب» ثم أضاف: «كما أن الأمريكان لديهم ثقافة السلاح، كل شخص يحمل سلاحا في بيته؛ نحن لا، نحن شعب مسالم»، الحقيقة شجعني على مجادلته، فقلت: «ولكني أشعر

(*) **كيبيك**: أكبر المقاطعات الكندية من حيث المساحة، عرفت عند اكتشافها بـ فرنسا الجديدة، ولا زالت تتمسك بثقافتها الفرنسية، وتعتبر اللغة الفرنسية هي اللغة الرسمية لها، وبها حركة كبيرة تدعو للانفصال عن كندا وتكوين دولة منفصلة.

Twitter: @ketab_n

أنهم أكثر طموحا وشغفا بما يقومون به عن الكنديين!»

فأجاب بسرعة يدافع:

«غير صحيح. هم فقط شديدو المهارة في استعراض نقاط القوة، بمجرد أن يقوم أمريكي بفعل أي شيء جيد، يبدأ في إظهاره والاستعراض به، يعلن عنه لكي يرى كل العالم ما قام به»

صدقت على كلامه قائلة:

«لديك ألف حق.. هم فعلا أساتذة في الدعاية»

ابتسم لشعوره بانتصار وجهة نظره، وأكمل:

«كما أننا أكثر إخلاصا لجذورنا منهم، من الظلم تشبيه الشعب الكندي بالشعب الأمريكي».

أردت أن أجيبه بأن «كلنا ولاد تسعة»، ولكني لم أعرف كيف أترجمها، فضحكت والتزمت الصمت. كنت أتساءل دائما: التمييز والتصنيف والقومية، هل هي قيم حقًا؟ أم أمراض وفيروسات تأكل الشعوب وتقضي عليها، تجعلها تتقاتل حتى يفني بعضها البعض؟.. فهذا الكندي المعتز بوطنه، يقابله كندي آخر يعتز بانتمائه لـ «كيبيك»، ويصف انفصالها عن كندا بالتحرر. هناك كندي لا يرى نفسه كنديا، ولكن ذو هوية أخرى، تعود بجذورها إلى فرنسا، ففي مونتريال حرب حضارية تدور رحاها منذ عقود طويلة بين أصحاب الثقافة الفرنسية «الفرانكوفون» وأصحاب الثقافة الإنجليزية «الأنجلوفون»، ورغم انتهاء حرب السنوات السبع فعليا عام ١٧٦٣ بانتصار الإنجليز،

Twitter: @ketab_n

وتنازل فرنسا عن مستعمراتها في أمريكا الشمالية لهم، إلا أن هذه الحرب، رغم مرور قرنين من الزمان، لا زالت مستعرة، فحتى اليوم تقف «جبهة تحرير كيبيك الانفصالية» كما يحبون تسمية أنفسهم، إلى جانب فكرة الانفصال عن كندا، ولا تتوقف محاولاتهم عن تحقيقها، بل والمدهش أن حوالي نصف من يعيشون في هذه المنطقة من العالم مؤيدين لفكرة الانفصال والتمسك بالثقافة الفرنسية، وهذا ما أثبتته الاستفتاءات التي قاموا بها عامي ٨٠ و٩٥. عندما أدركت سيطرة الثقافة الفرنسية على المدينة، فكرت في حصيلتي من اللغة الفرنسية، ووجدت أنها كلمة واحدة فقط....Bonjour !!!!!

في صباحي الثاني في مونتريال، تعلمت أن أقول صباح الخير على الطريقة الفرنسية أو المونتريالية، الراء خفيفة وأقرب الي الغين «بونجوغ»، فالفرنسية لغة مختلفة تماما عن الانجليزية، فالإنجليزية لغة حروف قد تسمح لك أحيانا أن تنطقها على طريقتك الخاصة، فيظهر لك ما يسمى بـ «الأكسنت» أو اللكنة، ولكنك ستكون مفهوما على أي حال، أما الفرنسية فلغة مقاطع صوتية، وإما أن تقولها كما هي، أو لن تستطيع نطق كلماتها أبدا، وإن نطقت بشكل خاطئ فلن تكون مفهوما من الأساس، وبالطبع فوق كل هذا سيبقى «الأكسنت».

تبادلت الحديث مع «ديان» حول مصر وكندا والعديد من الأشياء، واندهشت كثيرا لمعرفة المرأة بأحوال مصر وزيارتها لها، ولكن سرعان ما زالت دهشتي عندما قابلت زوجها الشاب المصري «هاني».

Twitter: @ketab_n

شعرت في البداية مع ديان وزوجها أنه من السهل للغاية الحصول على أصدقاء في مونتريـال، ولكني كنت واهمة، فقد عذبني الكيبكوا(*)المتشددين لدرجة التطرف بخصوص لغتهم، وعذبتني دروس اللغة الفرنسية، وعذبني البرد، ولكني كنت أكرر لنفسي دائما «أن أصعب مشكلة تواجهني هنا أسهل كثيرا من ركوب ميكروباص في مصر»

ماهذه الأفكار، وما هذا الهدوء الذي حل بي؟ لماذا لا أبدو كامرأة هاربة من زوجها؟ من أين جاءني كل هذا البرود؟! أنا حتى غير قلقة لعودته قبل أن أنتهي، وأعرف أنني سأرحل على أي حال، حتى لو لم أكن أعرف إلى أين أذهب، وما الذي سأفعله، وماذا سأقول لأصدقائي. كل هذا غير مهم، وكأن من كانت تهتم في السابق هي شخص غيري! أنزلت الصندوقين الثقيلين -بسبب الكتب- أولا، ثم أتبعتهما بالشنط. وضعت كل شيء في شنطة السيارة، ونظرت لها بامتنان، فالسيارة هي بيتي الآن، هي كل ما بقي لي من هذه العلاقة. أظن أنه كان يعرف جيدا ماالذي سيحدث في النهاية، لذلك اقترح أن تكون السيارة ملكي. ربما لأنه كان يرتب في وقت الفراق أن يأخذ البيت ويترك لي السيارة. لم أستطع أبدا أن أتعامل مع حقيقة حسابه الدقيق لكل شيء، ولكن بدا أن هذا هو أسلوب الحياة في الغرب، وليس مجرد طبع من طباع زوجي التي لا تتغير.

طبقا للقوانين الكندية، يجب أن يتم اتفاق مادي بين الزوجين قبل الطلاق، يضمن لكل واحد منهما حقه في حياة كريمة بعد الفراق،

(*) النطق الفرنسي لكلمة الكيبيكين، وهم سكان مقاطعة كيبيك

Twitter: @ketab_n

كل شيء يملكه الاثنان، يتم تقسيمه أو التراضي بينهما عليه، أو يُترك الفصل فيه للمحكمة، بحيث تعطي لكل ذي حق حقه، وهذا أحد أسباب هروب الكثير من الزوجات والأزواج في كندا، فالبعض يريد الاحتفاظ بمدخراته، والبدء بحياة جديدة دون أن يدخل في مشاكل الطلاق المكلفة على كل المستويات، بل إن هذا هو أحد أسباب قلة الزواج هنا، حتى أن بعض الاحصائيات قد أشارت أن نسبة كبيرة من الأطفال في كيبيك هم نتاج علاقات غير مقيدة كزيجات. أغلقت السيارة وصعدت إلى البيت مرة أخرى، ألقيت نظرة أخيرة على كل شيء، فاكتشفت أني نسيت سماعات الكمبيوتر الخاصة بي، وربما أحتاج أيضا إلى بعض الملاءات والأغطية، أخذت واحدة من كل نوع، تفاحة، وزجاجة ماء. وأغلقت هذا الباب ورائي للمرة الأخيرة.

بهذه البساطة!!..جلست في السيارة أفكر «أين أذهب؟» فجأة خطر ببالي أبعد مكان في كندا.. أخرجت «الجي بي إس»(*) وكتبت «وسط البلد – فانكوفر»(**). بعد أن حسب حسبته، أخبرني الجهاز أن رحلتي ستمتد ليومين وساعتين وعدة دقائق من القيادة المتواصلة على«ترانس كندا»، وأن هناك طرقا أخرى أقصر ولكنها ستمر بالحدود الأمريكية، فاخترت «ترانس كندا»(***).

(*) جهاز الكتروني به خرائط للعالم كله، وظيفته توضيح الأماكن والمسارات خلال القيادة أو السير

(**) مدينة شهيرة بمقاطعة بريتش كولومبيا أو كولومبيا البريطانية وهي في أقصى الجنوب الغربي لكندا

(***) **TransCanada**: هو اسم مجموعة الطرق السريعة (هاي واي، اوتوروت) التي تربط كل المدن الكندية

Twitter: @ketab_n

القاهرة

«عادي يعني.. هاسيب مصر.. وهاروح مونتريـال... ماعنديش حاجة هنا أصلا... ماعنديش أي حاجة أخسرها»

كنت أقولها ضاحكة لأصدقائي على مقهي التكعيبة في وسط البلد، أنفخ دخان الشيشة في الهواء، وأدفع معه شحنة من الغضب، وأكمل: «القاهرة.. قهرتني».

كان أصدقائي ينظرون لي بطريقة تعودتها مع الأيام، قد تكون دهشة أو شفقة أو خوف، فتلك الفتاة العادية -المسكينة في نظرهم - التي كنتها لا تقبل بقدرها أبدا وتسعى دائما للمتاعب. وكنت في كل مرة أجيب على نظراتهم ونصائحهم لي بنفس التحدي ونفس الجنون.

«نعم أنا الفتاة العادية ذات الأحلام الكبيرة، لن أخضع لتهديداتكم، ولن أخاف المستقبل، المستقبل لن يجرحني، البقاء هنا بينكم هو ما قد يقتلني ويقتل كل أحلامي»

Twitter: @ketab_n

كنت أتطلع إلى السماء، فيقولون لي انظري إلى تحت قدميك، اخفضي بصرك، «عيشي عيشة أهلك»، مدي ساقيك فقط بطول غطائك، ولكن غطائي القصير لم يترك لي سوى مساحة أتكوم فيها بوضع الجنين. وكان الحل الوحيد أن أرفس هذا الغطاء، أنطلق عارية، لا شيء يغطيني سوى جلدي، أتلقى الصفعات والركلات والبرد والجوع، وطالما قررت أن أمد ساقيّ، بل وأفرد ذراعيّ أيضا، طالما قررت أن أطير أو أقطع المسافات وحدي، فلأتحمل!

أتحمل نظراتهم المندهشة من شاة ضالة تخرج عن القطيع، وترفض أن تكون نسخة طبق الأصل، أتحمل شفقتهم من جنون الفتاة وخطرها، وخصوصا على نفسها.. وأتحمل كل طاقتهم السلبية في محاولات إقناعي بأنني فتاة ضائعة لا محالة، وأن ما أفعله خطأ، وأن الطريق طويل وشائك، وأن جميعهم يرى نهايتي المأساوية، إلا أنا!

أتحمل الخوف، خوفهم الذي ينقلونه لي كالعدوى، فهم يخافون نجاحي، لأنه سيذكرهم بفشلهم، وصولي هو العلامة الوحيدة على تعرقلهم، وسعادتي، التي لم يجربوا طعمها، ستظل دليلا على مدى تعاستهم، لذلك لن تتوقف النظرات السلبية أو الأسئلة: أين وصلت؟ ماذا فعلت؟ هل أنت سعيدة؟ ماذا تعملين؟ هل تدرسين؟ هل حصلت على الأوراق؟!

من البداية همست لنفسي «لو عاوزة تكسبي، اتحملي... اتحملي كل اللي فات وفوقهم.. الوحدة. بس ما طول عمرك لوحدك، إيه الجديد؟»

Twitter: @ketab_n

ولدت في بيت يطل على أقدام المارة، في حارة ضيقة من حواري السيدة. الشيء الوحيد المميز لهذا البيت كان رائحته العطنة، التي تتفاعل مع رائحة «الطرنش»(*) الذين مر عليه قبل الدخول من الباب. المنطقة عشوائية، وبعد أن بنيت بها عدة بيوت وعمارات واستطالت، بدأ السعي في إدخال شبكتي المياه والكهرباء والصرف الصحي. كان العمال يقيمون في الشوارع أيامًا وليال ليقيموا إحداها، يحفرون الشارع حفرًا غير عميق، يضعون المواسير، وفي فترات عملهم كانوا يضعون ألواح من الخشب تربط بين جانبي الحارة، يمر عليها الناس في رواحاتهم وغدواتهم، وكنت أخاف دوما من المرور عليها. ولكن تحت ضغط وإلحاح زوجة أبي، كنت أذهب لقضاء بعض الحاجات، فأصبَح هذا تمرينًا يوميًا جيدًا، لأتحول إلى لاعبة سيرك تمشي على حبال الحياة، ولا تخشي الوقوع. لقد كنت أنظر قبل المرور إلى قاع الحفرة، التي لم تكن تزيد عن ٣ أمتار في أقصى تقدير، وأسأل نفسي في كل مرة، ما أسوأ شيء ممكن أن يحدث؟ سأقع، سأجرح، بالتأكيد لن أموت، فالتراب يبدو طريًا.بعد هذه الأسئلة، كنت أغمض عينيّ وأمر إلى الجهة الأخرى. بعد الانتهاء من العمل، يتم الردم بطريقة مهملة، ليعلو الشارع، وتنخفض النافذة.. بعد تركيب كابلات الكهرباء، أصبحت نافذتي تطل على ما تحت الحزام، وترى الخضار وقدرة الفول على العربة.. ولكن بعد الحفر من أجل المياه والتليفونات والصرف الصحي، كانت نافذتي قد دفنت تماما، ولم تعد ترى سوى أقدام المارة وعجلات السيارات.

(*) غرفة تحت الأرض يصبُّ فيها كل الصرف الصحي للبيت، ويتم نزحها كل فترة، قبل وجود المجاري العمومية، ولا زالت موجودة في بعض البيوت في مصر

Twitter: @ketab_n

كانت سنواتي الأولى بها الكثير من هذه التدخلات القدرية، التي حدت من قدرتي واحتكاكي بالعالم، وضيّعت عليّ فرصة الاستمتاع به كطفلة. فأبي وأمي كانا دائمي الشجار، وكان أبي سبّاكا؛ هذا إذا قرر أن يعمل، فلقد كان عاطلا معظم الوقت، ولا شيء حقيقي بحياته سوى الجلوس على القهوة والسهر في الأفراح وشرب المخدرات. هكذا قضى أبي ما تبقى من شبابه، بعد أن أمضى سنواته الثمانية الأولى في التجنيد الإجباري من عام٦٨ إلى ٧٤، وخروجه من الحرب منتصرا ومحطما، يدور في ساقيته الخاصة ويلف سجائر محشوة، دون أن يتوقف لحظة واحدة لينظر إلى مائه، الذي انسكب في ليلة ما وتحول إلى كائن حي.. لا يكرهه، ولكنه لا يستطيع أيضا أن يحبه كما ينبغي.

توقفتُ بمحطة بنزين، لأضع ما يكفي لبداية الرحلة الطويلة، وأيضا للكشف السريع على السيارة، قبل الخروج من مونتريال. مونتريال التي كان وصولي لها بمثابة ولادة جديدة وكأني اشتريت وطنا، أصبح هروبي منها هدفا أخطط وأسعى إليه.

دلفت إلى المحطة لشراء بعض القهوة، وأثناء خروجي منها مررت بوجه امرأة قد تكون بسن أمي لو كانت موجودة، فابتسمت. لم يبق من أمي في ذاكرتي سوى «فلاشات» قليلة، شجارات ليلية مع الأب المسطول، وقفتها بالمطبخ الصغير تحضر عشاء ما ودموعها تجري على خدّها وشفتاها تتمتم بأشياء لا أفهمها، صورتها وهي تحمل المياه من الحنفية العمومية من أجل الغسيل، صورتها وهي تضعني في السرير مبكرا وتربت على ظهري كي أنام.

Twitter: @ketab_n

ذكرى اليوم الأخير... حين منحتني أمي إذنًا بالخروج واللعب في الشارع، فرصة لا تتكرر كثيرا، وبدلا من الخروج من البيت، صعدت السلالم، فصديقتي تسكن في الأعلى، وعادة ما نلعب على السطوح، لأنه أهدأ ولنا وحدنا.

ناديتها وصعدنا وبدأنا في ترتيب أشيائنا، لنبدأ تلك التمثيليات التي أُحبها «ستات محمدات»، بائعة خضر وزبونة، أم وطفلتها، هانم وخادمتها، نبيع ونشتري ونأخذ ونعطي تماما كالكبار، بعملة من ورق جرائد مقصوص، وشنط وعلب جمعناها في الأغلب من القمامة أو الكراكيب المخزنة في شققنا.

كنت قد اكتشفت في السطوح جهة تطل على شباك صالة بيتنا، وكنت أذهب إليها من وقت لآخر لأستكشف منها قلق أمي ومدى انتظارها لرجوعي، فإذا لم تظهر في الصالة ورأيتها تتحرك بتوتر، أعرف أنه يمكنني الاستمرار في اللعب!

في واحدة من جولاتي الاستطلاعية، رأيت أمي وأبي في الصالة، كان يبدو أنهما يتشاجران، استغربت لوجود أبي في البيت في ذلك الوقت. ولكني لم أسمع من صراخهما شيئا، نادتني صديقتي لأشتري الفول، الذي هو عبارة عن قصاصات ورق أيضا، فذهبت إليها أمثل دور الزبونة.

أمدُّ يدي بورقة جرائد «ادِيني بعشرة صاغ فول... واتوصى والنبي يا ابو أحمد» تماما بنفس الطريقة الناعمة التي كانت تنطق بها أمها الكلمات.

Twitter: @ketab_n

عدة دقائق، وعدت لمشهد المشاجرة.. كان فضولي لتتبع ما يحدث أقوى من حبي للعب، «استني»أشرت لصديقتي وذهبت إلى السور، لم أر سوى نصف أمي الأسفل.. انثنيت أكثر وتدليت، فرأيت شيئا غريبا يحدث، هناك سوائل تنسكب من أمي، وتبل ملابسها والأرضية. لم أستوعب، هل تبول أمي على نفسها، أم قررت الاستحمام في الصالة وبملابسها؟!!

وقبل أن يحتار عقلي في مزيد من الأسئلة، رأيت النار تمسك في جسدها كله، وبدأت أشعر بصرخاتها..وبدأت في الصراخ، وجريت هابطة السلالم، تتبعني صديقتي. وصلنا إلى باب الشقة، وكانت صرخاتي قد اختلطت بصرخات أمي، وتجمع الجيران.

كنت أطرق الباب بذراعيّ وقدميّ، عندما دفعني أحد الرجال وبدأ في محاولات كسر الباب بجسده.. ارتطم به عدة مرات، قبل أن يتفسخ الحلق وينفتح الباب. بعدها تسمر الجميع مكانهم وهم يرون أمي تحترق تماما، أكلت النيران شعرها، واختلط نسيج ما ترتديه بجلدها الذائب حتى ظهر لحمها الأحمر الملتهب تحته، تراجع الرجال إلى الخلف، وأمسكتني يد تمنعني من الجري نحوها.. لم يجرؤ أحد على الاقتراب منها وهي بحالتها هذه. وبعد ثوانٍ، ظهرت جارتنا «أم سيد» ببطانية في يدها، جرت ناحية أمي واحتضنتها، وبدأت في إطفاء النيران المشتعلة في كل أنحاء جسدها، فسقطت أمي على الأرض. نزلت أم سيد معها على ركبتيها، فردت جسدها الذي ساح كقطعة شيكولاته، واحتضنتها كطفل في اللفة، وأخذتها في حضنها، وبدأت في الارتجاف والبكاء. كانت أنفاس أمي تتهدج وتتحشرج، وكانت

Twitter: @ketab_n

عيناها مفتوحة لآخرهما، وشخص ما مازال يقيدني ويحاول وضع يده على عينيّ لكي يمنعني من رؤية المشهد. قال شخص ما «طلبنا الإسعاف»، ردت أم سيد من بين دموعها «اطلبوا أهلها.. خلاص.. الروح طلعت للي خلقها.. هو وحده الحَكَم والمُعين».

في الأيام التالية، أيام العزاء، بدت «أم سيد» بطلة أسطورية في نظري.. مدى شجاعتها فكرة ظللت أشغل بها نفسي عن صورة أمي المحترقة، والتي بدأت أسمع عنها الحكايات، وكأنها شخص آخر لا أعرفه. تناثرت الأقاويل، وكان أصعبها اعتمادا كونها ماتت كافرة وخسرت دنياها وآخرتها!!

لا أريد الآن أن أصبح جميلة وطيبة مثل أمي، فمن لهم صفاتها يحترقون في النهاية. ولكني أردت أن أكون شجاعة مثل «أم سيد»، عادلة مثلها فلا أطلق الأحكام، أساعد الناس مهما كانوا أو ماكان منهم، ثم أهمس في النهاية أن الله وحده الحَكَم والمُعين.

إن حكم الدين في قضية أمي كان قاسيا لدرجة جعلتني أنفر منه، وكانت كلمات «أم سيد» هي شعرة معاوية التي ربطتني بفكرة مثل «العدل» أو «وجود «الله».. كان تعليق هذه المرأة هو السبب الرئيسي لتمسكي بإيماني بالله، حتى بعد أصبحت حرة في الكفر به.. هنا في كندا. أخذني أهل أمي لفترة، ليس حبًا في ولكن نكاية في أبي. كنت قد توقفت تماما عن الكلام من الصدمة، رفع جدي لأمي قضية يتهم فيها أبي بقتلها، حاولت أن أقول له أني رأيتها وحدها تصب الجاز على نفسها وتحترق، ولكني لم أستطع.

Twitter: @ketab_n

على أي حال، كسب أبي القضية، فقد كان لديه العديد من الشهود على المقهى وفي مكان الحريق، ليثبتوا أنه لم يكن مع أمي وقت الحادث.

بعدها أخذني أبي من أهل أمي، وبعد عدة شهور عدت للكلام واللعب، وظنوا أني نسيت كل شيء. ولكني توقفت عن تمثيل دوري في «ستات محمدات» بنعومة أمي، وبثقة أكبر وجدية أشد أصبحت أنطق الكلمات.

بقي أبي وحيدا لفترة، ثم أحضر زوجة جديدة. وكأنه اختارها عكس أمي في كل شيء، فلم يكن لها جمالها أو حنانها، وجعلت حياتي صعبة بكثرة أوامرها، ولكني ثابرت واحتملت، حتى تخرجت من كلية السياحة والفنادق، ثم جمعت أغراضي، وأغلقت هذا الباب أيضا للأبد.

Twitter: @ketab_n

مون ترامبليه

تشير العلامات باقتراب «مون ترامبليه» وهي مدينة صغيرة، لطالما تخيلتها أقرب لمنتجع، لكثرة ما جاءني من عروض لزيارتها وقضاء ليلة أو اثنتين في أحد فنادقها أو شاليهاتها.

في البداية كنت أفتح تفاصيل العرض، وأتردد في أن أدعو له زوجي، فقد كنت أحب أن يبدأ هو ويدعوني لمثل هذه الرحلات. بعدها، بدأت في التجرؤ وسؤاله الذهاب إلى رحلة ما، وكان دوما ما يقول نعم في البداية، ثم يبدأ في التأفف من المكان، ويقترح أن أجد مكانا أفضل أو سعرا أفضل بخبرتي في مجال السياحة، ويسألني «لم لا نذهب إلى كذا... وكذا؟»، ثم «دعينا نفكر في الأمر!» والعبارة الأخيرة في قاموسنا تعني «لا» غير مباشرة.

كان زوجي لطيفا جدا، بحيث لا يقول «لا» صريحة.. ولكنه كان عنيدا جدا ومتسلطا، بحيث لا يقول «نعم»، أو يسمع أبدا لأي شيء أقترحه.

Twitter: @ketab_n

مع الوقت صرت أعرف هذا التكنيك، الذي يستخدمه معي لكي لا يؤذي مشاعري، ولكنه في الحقيقة، وبهذه الطريقة، كان فعلا يؤذي مشاعري، وبشكل أكبر مما يتصور.

مع الوقت، فقدت الأمل تماما في قيامنا بأي شيء سويًا، فربما لو قال «لا» صريحة، لكان هناك أمل في أن يقول يوما «نعم»، ولكن بطريقته الجهنمية في خذلاني، جعل من «لا» و«نعم» كلمتين مترادفتين في قاموس حياتنا سويا، معناهما «لا»، ولا مجال للقبول أو الوقوف على أرضية مشتركة.

عندما توصلت لهذه القناعة، بدأت في البحث عن رفيق آخر للرحلة، ولكن نهى أقرب صديقاتي كانت قد ذهبت إلى هناك بالفعل مع زوجها وابنتها، وقضوا إجازتهم بأحد الشاليهات، وعادت تحكي لي عن روعة الطبيعة والغروب هناك. «نهى!..يجب أن أتصل بها. هي تعرف أنني مجنونة، ولكن ليس إلى هذا الحد.. سأفتقدها كثيرا»

كنت أحدّث نفسي، وأتذكّر دعوة أحد الأصدقاء لنفس المكان. وقتها كدت من اليأس أن أوافق، ولكن الغريب أنني فقدت اهتمامي بالسفر معه في اللحظة الأخيرة.

كان هناك خيط يفصلني عن فكرة الخيانة، خيط رسمته لنفسي دون وعي. دائما ما أشعر أنني بحاجة لقوة دافعة لأفعل أي شيء، قوة مثل الحب، أو حتى مجرد الإعجاب عادة كل النساء، أو حتى المصلحة أو المنفعة، وهذا الصديق لم يكن به أي نوع من الجاذبية بالنسبة لي، وجمال المغامرة لم يكن كافيا ليجعلني أقبل الدعوة.

Twitter: @ketab_n

كما أني تعودت المغامرة بنفسي وتحمل النتائج، أما فكرة الخيانة فهي مغامرة بشخص آخر، ولم أكن أبدا من ذلك النوع الذي يمكنه إيذاء أي كائن آخر، لذلك رفضتها في اللحظة الاخيرة.

«هل أقضي ليلتي هنا في مون ترامبليه وحيدة تماما، فقط لأحقّق أمنية قديمة؟ البلد سياحي، وبالتأكيد به العديد من الفنادق، ولكني لم أمض سوى ساعتين من الطريق، ومازال النهار، ولم أبدأ في الشعور بالتعب من قيادة السيارة بعد. فلأتوقف قليلا لشرب القهوة وأرتاح، ثم أستكمل رحلتي، فربما لا تواتيني الفرصة لأعود مرة أخرى لهذه النقطة من العالم أبدا»

خرجت بسيارتي من ترانس كندا، وانحرفت إلى المدينة الصغيرة. خففت سرعتها، وانشغلت بالفرجة على الشوارع شبه الفارغة. كان صوت المرأة في الجي بي إس يعلو بأنني أمشي في الطريق الخطأ، ويعيد الحساب ليعيدني للطريق الذي رسمته قبلا، وهو «فانكوفر» ولكني أغلقت فم المرأة لترتاح وأرتاح، وظللت أبحث عن مقهى صغير أو أي مكان صالح للراحة. بجانبي في المقهي عائلة مكونة من أب وأم وطفلين. كلما رأيت أطفالا، وكيف يتم التعامل معهم هنا، تحسرت على طفولتي البائسة. صحيح تبدو بعيدة للغاية،ولكن من يصدق أني عشت طفولة بمثل هذا السوء ورأيت ما رأيت، وكأنني كنت في زمن آخر، أو أن من عاشها شخص غيري.

عندما جمعت أغراضي وتركت بيت أبي وزوجته، واتجهت إلى موقف الترجمان، وأخذت ذلك الأتوبيس المتجه إلى شرم الشيخ،

Twitter: @ketab_n

كان عمري وقتها يزيد عن الواحد وعشرين بشهور قليلة. قبلها كنت قد بدأت في العمل أثناء الإجازات الصيفية، منذ الصف الثاني الإعدادي. كنت أعمل في مشغل خياطة كـ «مرمطون»، أجمع القصاقيص، وأكنس المكان، وأجلب الأطعمة والمشروبات للفتيات الكبيرات على ماكينات الخياطة و«الأوفر لوك»، حتى طال عودي واستطعت أن أجلس أنا الأخرى على ماكينة.

كنت وقتها أستعد للثانوية العامة، وكنت أعمل في الإجازات لأوفر احتياجات المدرسة ومصروفي في الأيام التي أتوقف فيها عن العمل، وأثناء الدراسة كانت طاقتي كلها موزعة بين أعمال المنزل التي تترك زوجة أبي معظمها لي، وبين رعاية أخوتي الصغار. وكان كل اعتراض مني لا يلقى سوى الضرب والإهانة والتهديد بسحب ملفي من المدرسة؛ والمدرسة بالنسبة لي كانت طوق النجاة الوحيد من كل هذي المآسي التي ضربت حياتي.

ثابرت كثيرا، ومن المشغل إلى محلات وسط البلد، تعلمت كيف أكون بائعة. كنت أعرف مقاس الزبون من نظرة، وأعرف جيدا من يريد أن يشتري فعلا ومن يريد الفرجة فقط. في كل الحالات، كانت ساعات العمل ١٢ ساعة من ٩ إلى ٩ وأحيانا إلى ١٠ و١١ في المواسم قبل الأعياد.

ظهري، الذي أرهقته انحناءة الماكينة، كاد أن ينكسر عندما كنت أجلس بعد وقفة يوم طويل وراء الفاترينة، ولكن كل هذا لا يساوي شيئاً أمام تحقيق حلمي ودخولي الجامعة. سأكون أول فتاة في عائلتي

Twitter: @ketab_n

تدخل الجامعة، وراتبي الذي بدأ بـ ٦٠ جنيه في المشغل ووصل إلى ٢٥٠ جنيه كبائعة في محلات وسط البلد، سيتغير تماما بعد حصولي على البكالوريوس. ولكن الدراسة مكلفة، وخاصة ملابس الجامعة، وما أحلم به «قسم إرشاد» هو الأفضل والأغلى ضمن الأقسام الأخرى، لذلك اخترت «فندقة». فليكن ما يكون، في النهاية اسمه «بكالوريوس سياحة وفنادق».

مع آخر يوم في امتحان البكالوريوس، بدأت في البحث عن وظيفة، وظيفة ملحقة بسكن، لم أكن على استعداد للبقاء يوم آخر في بيت أبي بعد تخرجي. كنت أعلم جيدا الخطوة القادمة، تزويجي، ولم أكن أرغب أبدا الدخول في صراعات من هذا النوع مع أبي وزوجته. بعد الدوران لأيام طويلة، أخيرا تم قبولي في وظيفة بأحد الفنادق الكبرى بشرم الشيخ.. وظيفة بالفندق، ولها سكن.

في الأيام التالية، ذهبت لتكملة أوراقي وإعطاء مقاسات جسدي، ليتم عمل «يونيفورم» خاص بي. الفرحة لم تسعني، أخيرا سأخرج من حفرة السيدة، سأركب أتوبيسا لثمان ساعات متواصلة، وسأذهب إلى مدينة جديدة، مدينة تشبه ما أراه في الأفلام، مدينة ليس بها أبي المسطول وزوجته المتسلطة، وليس بها صاحب المحل اللزج، وذِكرى انتحار أمي.. مدينة بها بحر!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

شرم الشيخ

شعرت أن الحياة تبتسم، وأنني أصنع تاريخا جديدا. كنت أرقب من شباك الأتوبيس شوارع القاهرة وعماراتها وهي تنسحب تدريجيا للخلف، وكأني أترك ورائي كل الذكريات المؤلمة.

نمت في الطريق، وصحوت قبل الوصول بقليل. كانت إحدى اللجان قد أوقفت الأتوبيس، وكان الأمين يسأل الركاب عن هويتهم والأماكن التي يقصدونها. أخرجت بطاقتي وتصريح العمل الذي حصلت عليه، ولأول مرة أشعر أن لي شخصية اعتبارية، وخاصة بعد أن اصطحب الأمين فتاة ذات مظهر مشبوه قليلا، ولا تحمل بطاقة، ولم توضّح وجهتها بشكل جيد معه إلى مكان الكمين، وأشار للأتوبيس بالذهاب.

أصابني القلق على البنت، وعندما سألت الولد الذي يعمل بالبوفيه عن مصيرها أجاب: «أهو هيتسلوا عليها شوية وبعدين يركّبوها أتوبيس من اللي راجعين القاهرة».

Twitter: @ketab_n

العمل بالسياحة يبدو رائعا من الخارج.. ملابس مهندمة، نظام، نظافة، احترام، ابتسامات لا تتوقف لحظة، ماسة تلمع من كل الاتجاهات. ولكنها في الحقيقة مجرد زجاج، ليس ماسة حقيقية كما يبدو، فقط زجاج... يخدع الرائي. والحياة في الفنادق غير العمل بها.. فهناك غرف خلفية، وعالم أشبه بعالم الخدم في القصور الفخمة.. كل شيء في هذا العالم مقسم بين لنا ولهم.

كانت البداية عندما وجدت نفسي أتقاسم الغرفة مع فتاتين أقدم وأكثر خبرة، وأكثر مرونة في التعامل مع هذا العالم. تعلمت الكثير منهما، ولكني تأذيت كثيرا أيضا، بسبب الغيرة والحيل الدنيئة والحقد والكراهية.كان الفندق مقسماً إلى طبقات، مثل المجتمع بالضبط. فهناك الطبقة الأعلى وهي النزلاء والمدراء وعشيقاتهم، بعد ذلك الطبقة المتوسطة من الموظفين والإداريين ورؤساء الأقسام والإشراف والمتمردات مثلي، وكانت هناك الطبقة الدنيا من عمال الصيانة والمطبخ والحمّالين.

كان يمكنني أن أصعد إلى الطبقة الأعلى لو أردت.. باب المدير مفتوح على مصراعيه للفتيات من أمثالي، كل المطلوب أن أرتدي شيئا لطيفا ومثيرا، وأدعي رغبتي في مناقشة أي موضوع، وأدخل إلى جناحه المتواجد في نهاية الممر الذي به غرفتي. كنت أفكر في هذا أحيانا، وخاصة أن هذا قد يصنع نقلة نوعية في حياتي، فسآكل معه في المطعم الخاص بالنزلاء، بديلا عن الأكل في زوايا المطبخ مع باقي العمال، وستأتيني طلباتي إلى غرفتي متى أحب، وستزيد مكافآتي وإجازاتي أيضا. ولكني لم أرغب في ذلك، لم أكن أشعر بالاحتياج له،

Twitter: @ketab_n

فكل ما أحتاج له وقتها كان العمل والمرتب الصغير، الذي يؤمّن لي حياة يوم بيوم. حتى عندما رأيت هؤلاء الأثرياء العرب، بجلاليبهم البيضاء وعُقلِهم، يوزعون من رزم كبيرة الفلوس على العاملين بالفندق، وكأنهم يرمون (نُقطة)على الراقصات في الملاهي الليلية. كانت نفسي تعف أن تقف في الطابور وتستجدي شيئا، وكأني كنت أرى في ذلك هوة ما، أخشي الانزلاق إليها. كنت أتمنى أن أمتلك يوما ما يكفيني، ولكن كنت أعرف وأرى في كل ما حولي أن الفلوس تأتي بأمراضها ومشاكلها معها، وهي ليست نعمة كما يظن البعض.

فقط كنت أندهش كيف يمكن لشخص أن يخرج من جيبه رزمة تحوي ١٠ آلاف جنيه مثلا، ويبعثرها في الهواء بهذا الشكل! كنت أفكر ما الذي يمكن أن يفعله مبلغ مثل هذا في حياتي! ماذا سأشتري؟ ومن سأساعد؟ كنت أفكر في الـ٦٠ جنيه التي كنت أتلقاهم وأنا طفلة، لقاء عمل ٣٠ يوم من كنس وتنظيف ومشاوير، ها هي تنفلت من يد الرجل الثري في صورة ٣ ورقات من فئة ال ٢٠ جنيه، وتذهب إلى جيب عامل الأسانسير، الذي لم يفعل أي شيء سوى الانحناء والتحية.

علّمني العمل في السياحة العديد من الأشياء.. بدأت أتعلم كيف أرتدي ملابسي، وكيف أختارها، وكيف أضع ميكياجا بسيطا يظهر جمالي، وكيف أكون مثيرة رغم احتشامي. وتعلمت أيضا الحفاظ على جسدي، لأن مظهري هو رأس مالي الوحيد. أصبحت ملابسي في الإجازات أقرب لملابس الأجانب، أكثر بساطة وأناقة.

Twitter: @ketab_n

مع الوقت، أصبحت أجمل وأكثر رضا عن نفسي، ودفعتني المكائد من زميلاتي إلى جعلي أكثر ذكاءً وحِرصًا من أي وقت مضى. وكان أكثر ما يثيرهن عدم اختلاطي بهن، وعدم التحدث عن ماضيّ أو عائلتي أمامهن. وكان اختلافي يشعرني بأني مميزة، وهذا الشعور كان يدفعني أكثر على الحفاظ على هذا التميز، وكأنه عصاتي السحرية التي أملكها، ولكني لم أستطع استخدامها بعد. وبدأت أسمع الشائعات عن كوني هاربة من عائلة محترمة، أو أني مقطوعة من شجرة، لكن في النهاية لم يكن أحد يعرف حقيقة قصتي... لأني ببساطة لم أصرّح بها لأحد.

Twitter: @ketab_n

مون لورييه

تقول علامات ترانس كندا أنني أقترب من «مون لورييه»، وكانت الشمس قد غربت أخيرا، وإن كان ضوءها لا زال يغمر الكون، فلقد كنت أجري وراءها، ولكن الشمس بالتأكيد أسرع.

«لوريـال»..«لورييه» أسماء مثيرة لم أستطع التفرقة بينها حتى وصلت إلى كندا. إحداها ماركة مستحضرات تجميل شهيرة، والآخر شارع من شوارع الصفوة في مونتريـال..الأغنياء الذين لم أكن ولن أكون واحدة منهم أبدا، فالمال لم يكن أبدا واحداً من أهدافي..كل ما رغبت فيه كان غرفة، سقفًا، بيتا يغلق بابه دوني، ولا يتحكم فيه سواي. قد يكون لدى الإنسان حلم كبير، مثل أن يصبح مليونيرا مثلا، وعندما لا يتحقق هذا الحلم يحزن، ولكنه يقول إنه حلم كبير، أكبر من قدرتي.

ولكن عندما يكون حلمك صغيرا وبسيطا ومنطقيا، مثل أن تملك غرفة بسيطة لك وحدك، كي ترتاح فيها وتفرشها كما يحلو لك،

Twitter: @ketab_n

ويكون هناك عمل بسيط يؤمّن لك إيجار هذه الغرفة وبعض الخبز، ورغم ذلك لا يتحقق الحلم، وقتها تشعر بمدى عبثية هذا العالم، وكم هو غير منصف مع أحلام البسطاء التافهة.

كم مرة مررت بشارع لورييه، وتذكرت الكوربة ومصر الجديدة، ذلك المكان الذي اكتشفته متأخرا جدا في مصر، بعد تخرجي من الجامعة وعملي بشرم الشيخ. مكان لم يكن للغلابة من أمثالي حق الاقتراب منه، بمحلاته التي تبيع المجوهرات والنظارات والعدسات باهظة الثمن من مختلف الماركات العالمية، والمقاهي الفاخرة التي اكتشفت بعد ذلك أنها ليست فاخرة كما أظن، ولكن المشكلة داخلي أنا. لقد تعودت أن أخشى كل مكان أتصور نفسي غير قادرة على دفع فاتورته، الأشياء التي لا أعرف ثمنها ترعبني، حتى أنني أفضل الهرب دائما من كل شيء ليس به علامة للسعر، وأرى -بداية ما أرى- في أي شيء سعره، قبل أن أقرّر النظر إلى جودته أو التفكير في مدى احتياجي له أم لا، ولا أغامر أبدا بالسؤال، لأوفر الإحراج، إلا لو كان بجيبي مبلغ محترم.

في وقت ما، كنت أقضي كل المسافة التي يقطعها التاكسي في التفكيركم سيطلب في النهاية، وهل ما معي كافٍ؟! حاولت كثيرا السيطرة على أفكاري والتركيز في أشياء أخرى، ولكن بلا فائدة. ظننت أن لديَّ مرضا خاصا يسمى «وسواس التاكسي»، مثل الوسواس القهري، ولكني لم أجد له علاجا سوى ظهور التاكسي الأبيض «أبو عدّاد»، وقتها بدأت أتخلى قليلا عن فكرة كم سأدفع وهل ما معي يكفي، وأصبحت أكتفي بالنظر من وقت لآخر على

Twitter: @ketab_n

العداد، لأطمئن أني لا زلت أحمل ما يكفي للأجرة، ولا أعرف ما الذي كنت سأفعله إن تخطيتها!! في الغالب، سأطلب منه أن ينزلني وأكمل باقي الطريق على قدميّ!

في النهاية، أصبحت هذه التصرفات بعض عاداتي السيئة..أتابع العدّاد، وأشتري فقط ما يحمل علامة السعر، وإن لم أجد العلامة أظل أبحث عن منتج من نفس الصنف يحمل واحدة. إنها أعراض الفقر، التي أصبحت أخبئها لاحقا عن صديقاتي، لكيلا يعلمن بأني «وش فقر»، أنتقي الفرص والبضاعة الرخيصة. هن سيدات العلامات التجارية وبطاقات الائتمان، اللاتي لطالما أشعرنني بالنقص، ولكثرة من فضن عليّ بهذا الإحساس، ظننت أنه مرض متأصل فيّ، وأنه عيبي أنا وليس عيبهن.

أستيقظ من أفكاري على صوت شاحنة ضخمة تتخطاني. كنت قد ثبّت سيارتي بالمسار الأوسط، وعلى سرعة ١٠٠كم، كي أفسح الطريق لكل من يريد أن يتخطاني. مرت ساعتان الآن، وبدأ الليل يرخي سدوله.. أنا الآن في حاجة إلى استراحة قصيرة وكوب من القهوة، قبل أن يداهمني الإحساس بالنوم.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

فال دور

اقتربت من بلدة تسمى فال دور، أوقفت محرك السيارة أمام استراحة، ودلفت إلى مقهى داخلها. وعندما خرجت، كنت قد اشتريت كوبا من القهوة وعلبة سجائر، وأدرت حديثا سريعا مع البائع حول المدينة والمدن الكبرى حولها، وعرفت أنني اقتربت جدا من الحدود بين مقاطعتي كيبيك وأونتاريو، حيث تنتهي كندا الفرنسية، وتبدأ كندا الإنجليزية. خرجت من المكان، وفتحت علبة السجائر، ثم تذكرت أني لا أملك كبريتاً أو ولاعة، فأنا لست مدخنة من الأساس، ولكني أحيانا أشتاق إلى تدخين سيجارة.

في لحظات كهذه، عندما أشعر أنني خارج نطاق نفسي تماما، أحب أن أراها امرأة تقف على حافة العالم تدخن سيجارتها باستمتاع مطلق، ولا تبالي لكل تحذيرات وزارة الصحة والبيئة حول مضار التدخين، تخرج لسانها للعالم وتقول له «fuck»، ولا أحب أن أراها «ليدي» أو «هانم» أو «بنت ناس»، مقيدة بالقواعد والأصول.. أحب أن أراها «عاهرة»!

Twitter: @ketab_n

كم أحب هذه الفتاة المتمردة بداخلي، فهي السبب في العديد من الأشياء الحلوة في حياتي.. هي صاحبة كل القرارات المتهورة، هي التي ثارت على قدرها وتحدت الجميع، أحب أيضا الأخرى، تلك الرقيقة البريئة كالأطفال. ولكن تلك البريئة كانت دائما ما توقفني مكاني، إن لم تسحبني إلى الخلف، تجبرني على الصمت، على عكس المشاكسة التي دائما ما كانت تأخذني وتطير، وتريني أشياء لم أحلم حتى برؤيتها في وقت سابق.

بداخل كل منا كل هذه الأوجه، كل هذه التناقضات، لن يمكننا رفضها أو التخلي عنها، بل على العكس، وجدت راحتي في توازنها واتفاقها سويا، في تقبلها جميعا، واكتشفت أن المتمردة هي الأكثر قدرة على التقبل، فبسبب أخطائها الكثيرة تعلمت كيف تسامح، مثلما تعلمت أيضا ألا تثق أبدا في الوجوه البريئة للآخرين.

سيجارتي الأولى دخنتها في سرير رجل غريب بعد ممارسة الحب. ابتسمت للذكرى، فدائما ما تضحكني ذكرى هذا الحبيب على وجه الخصوص، لأني كنت أقوم معه دائما بأشياء مجنونة. كنت أحب أن ألعب معه دور العاهرة، ومع ذلك أحبني كثيرا، ربما لأنه كان يدرك بإحساسه أنني لست عاهرة، وأن بداخلي مجرد فتاة مقهورة، أو ربما لأنه كان يعرف العاهرة التي بداخلي، ويحبها رغمًا عن ذلك، فحتى العاهرات بداخلهن فتيات مقهورات يستحقَّن الحب.

سألت أحد الأشخاص عن كبريت، فأخرج ولاعته وكـ «جنتلمان»، أشعل لي سيجارتي..كانت عيناه لهما زرقة صافية، وكنت

Twitter: @ketab_n

أعرف قدرات عينيّ السحريتين عندما أريد! لذلك شكرته وانتظرته بعد أن دخل المقهى أن يعود مرة أخرى. راهنت نفسي أنه سيعود!

لا أعرف كيف كنت أفعل هذا، أجذب الرجال بهذا الشكل، رغم أني لست جميلة جدا أو ذكية جدا.. وربما لهذا السبب ذاته كنت جاذبة لعدد أكبر من الرجال، ومن مختلف الأشكال والأنواع. مع الوقت، كنت أشعر أحيانا أني قد فقدت جاذبيتي، أو أني بعد كل ما مررت به في حياتي قد أصبحت عجوزا من الداخل رغم صغر سني. ولكني من وقت لآخر، كنت ألعب هذه اللعبة، وأراهن نفسي تلك الرهانات الصغيرة، فأتأكد من أن قدرتي السحرية لم تعجز بعد.

عاد ذو العينين الزرقاوين، أشعل سيجارته ووقف يدخنها بجانبي، وابتسم،فابتسمت، وضحكت بداخلي لأني كسبت الرهان بعودته وابتسامه. مازلت رغم السنوات لم أفقد تأثيري القوي، هذا السحر الذي لم أكتشفه إلا بعد وصولي إلى شرم الشيخ، وارتدائي فستاناً لأول مرة. سألني الرجل «إيطالية أم أسبانية؟»

ضحكت وأجبته «ماذا تظن؟»

أخبرني في مغازلة صريحة بأنه يظن أنني جميلة جدا..ضحكت أكثر. سألني إذا كنت أعيش في نفس المدينة أم على سفر، أجبته أني مسافرة في اتجاه فانكوفر..«طريق طويل.. هل ستواصلين القيادة ليلا، أم ستتوقفين للنوم بأحد النزل؟»

أجبت بأني سأقود ساعة أو ساعتين على الأكثر، ثم سأبحث عن فندق على الطريق لأبيت به.

Twitter: @ketab_n

قال لي إنه سيقضي ليلته في القيادة ذاهبا إلى «وينينباج» لزيارة صديق، ولكنه نفس طريقي على أي حال..

عرض عليّ أن نتتبع بعضنا البعض، ونتوقف بعد مسيرة ساعة ونصف أو ساعتين في فندق على الطريق لنشربكوبين من البيرة، بعدها أصعد أنا لأقضي ليلتي، ويذهب هو إلى حال سبيله. أعجبتني الفكرة، فلقد كانت كفيلة بتنشيطي لساعتين أخريين على الأقل. وبدأ خيالي يرسم كل الاحتمالات الممكنة لقصتي مع هذا الرجل الغريب، والتي أعرف مقدما أن معظمها لن يحدث.

كندا أرض الحرية الوهمية، والمواعيد المضروبة. في مصر أحببت يوسف،وكنت أفعل كل ما يمليه عليّ جنون الحب من متطلبات.. السفر، جري تحت المطر، التقبيل في السينما، اللقاءات المختلسة، كنت أفعل كل شيء وأستمتع به في الخفاء، وكان هناك دائما من أحبه وأغامر بكل غالٍ لأكون معه وله.

ولكن هنا.. الحرية ملء العيون والآذان، يمكنك التقبيل في كل مكان، ربما صفق الناس مباركين حبكما، أن ترقصا سويا، أو حتى تمارسان الحب في مصعد. حرية لا حد لها، ولم يكن هناك شخص واحد بعد يوسف أحبه وأقوم معه بهذه الأشياء. ظل الخوف يحكمني، وأظنه يحكم الآخرين أيضا.. الخوف من الحرية الزائدة بلا ضوابط، الخوف لدرجة قد تعطل الحب وتجمد المشاعر.

كندا.. هي أرض المواعيد المضروبة بالنسبة لي، لأن لا حب حقيقي هنا... سوى حب الشخص لذاته.

Twitter: @ketab_n

تيمّينز

لا أصدق أن كل هذه المساحة الشاسعة غير مأهولة بالبشر، أونتاريو ثاني أكبر المقاطعات الكندية مساحة وأكثرها سكانا، ولكن كل سكان أونتاريو -وهم حوالي ثلث سكان كندا- يتركزون في عدة مدن على الحدود الأمريكية الكندية، في مدينة تورنتو وما حولها. والأغرب من كل هذا، أن كندا، ثاني أكبر بلدان العالم مساحة،لا يسكنها اليوم سوى حوالي ٣٥ مليون شخص فقط. إن الشعب المصري كله يمكن تهجيره إلى مقاطعة واحدة أو اثنين من مقاطعات كندا العشر، وبعدها ربما تصبح كندا ٣٠٠ مليون كالولايات المتحدة الأمريكية. ولكن الهجرة في كندا انتقائية، هم يقبلون فقط هجرة من تحتاج له كندا، وليس من يحتاج إلى كندا.

صففنا سياراتنا في باحة فندق «هوليداي إن»، وسبقته في الدخول إلى الاستقبال، حجزت غرفة، وسألت عن طريق البار، أشار لي الموظف إلى مدخل مزين بستائر حمراء كستائر المسرح. كان البار خافت الإضاءة، ويبدو أن له مدخلا آخر لسكان المدينة الصغيرة.

Twitter: @ketab_n

كانت الساعة في حدود التاسعة، والبار ممتلئ بالبشر، وموسيقى الجاز تصدح بصوت عال في أرجاء المكان. جلسنا على ترابيزة جانبية، وطلبنا دورق من البيرة البيضاء.

«أشعر أنني أعرفك منذ زمن طويل»..

ابتسمت، وتركته يتكلم ويتكلم، فقد تعلمت منذ فترة طويلة الصمت في حضرة الرجال. كانت الطريقة الوحيدة لمكاسب أكثر وأخطاء أقل مع هذه المخلوقات العجيبة، وربما هذا الصمت تحديدًا هو ما يغري الرجال فيَّ، فأكثرهم كتمانًا يتحول بعد فترة قصيرة إلى كتاب مفتوح.

كان الرجل شديد الالتزام بكأس البيرة الوحيد خاصته. التزامه هذا كان إشارة لعدم تطور لقائنا لأكثر من فترة راحة ودردشة، فهو عائد للطريق ولا يريد للكحول أن يرتفع بدمه لدرجة تعوقه عن القيادة. أما أنا، فقد استغليت استغراقه بالحكي، وشربت كسمكة على غير عادتي.

مع الوقت، أدركت أن «الشرب»-وخاصة الكحول- جزء مهم جدا من ثقافة الغرب، فالمنتشر هو الكحول في مقابل التدخين في دول الشرق، وخاصة الحشيش. والشرب لديهم مرتبط بكل الأوقات اللطيفة، وهناك نوع من الخمر لكل طعام، ومحلات كبيرة خاصة فقط لبيع الخمور، المستوردة من كل أنحاء العالم، والمحلية كذلك. في كندا، هذه المحلات ملك للدولة، تديرها وتحتكر بيع الخمور تقريبا، كما تحتكر كل السلع الهامة لحياة المواطن الكندي.

Twitter: @ketab_n

الشرب عند البعض يقوي عضلة القلب، ويعدل المزاج، ويحافظ على اللياقة، ويساعد على الانفتاح على العالم.

لو مررت أمام بار مونتريـالي في الساعة الخامسة، ستسمع همسا هادئًا.. اذهب وعد بعد ساعة، ستجد هذا الهمس تحول إلى ضوضاء عارمة. هذا ما يسمونه هنا «سانك أست» أو من الخامسة للسابعة، احتفالية صغيرة يومية، لمن يريد أن يتواصل قليلا مع أصدقائه، بعد ساعات العمل الطويلة.

في ثقافتي الأم، «الشرب» هو وسيلة للانفصال عن الواقع، للنسيان، لكن هنا هو شيء يتم التخطيط له، ويتم اختياره بعناية، والتقنين والتفنن في تقديمه وصنعه.

حكى الرجل، بعد أن فكت البيرة عقدة لسانه، كيف جاء من وطنه الأصلي «رومانيا» إلى كندا بحثًا وراء الفرصة، كالجميع. الشعب الروماني صاحب سمعة سيئة بين الدول الأروبية، صورة «الروماني» في أوروبا قريبة جدا من صورة «المصري الفهلوي» في الوطن العربي، حتى أن الموافقة على دخول رومانيا ضمن دول الاتحاد الأوروبي جاءت بطلوع الروح. قام الرومانيون بثورة، وفشلت الثورة، وظل الفساد قائمًا يأكل في أعمدة الدولة، لذلك هرب منه.

يغلق الرومانيون كثيرا على زوجاتهم – هكذا قال– لذلك، عندما جاءت زوجته إلى كندا، كان قدر الحرية أكبر من استيعابها. كانا قد أنجبا فتاتين، وهي هنا حملت في طفل ثالث، وبعد قليل صارحته بأنه ليس طفله، فطردها.

Twitter: @ketab_n

ذهبت إلى عشيقها، ولكنها اكتشفت عندما أقامت معه أنه تاجر مخدرات، وعادت نادمة، لأنه لايريدها ولا يريد الطفل. لذلك أخذها إلى طبيب لتجهضه، وأبقاها في البيت فقط من أجل بناته.

بعد كأس البيرة الثالثة، بدت قصته كفيلم سينمائي، وبدت عيناه الزرقاوان كبحرين من الدموع. كان يبدو عليه التورط في الحكي، تركته يكمل في هدوء، لأني شعرت كم كان يحتاج إليه.. أن يحكي كل همومه لغريب، عابر سبيل يسقط عنده كل أحماله وينساها. لم يكن هناك مساحة لحكايتي أنا الأخرى، فسرحت قليلا وأفقت على كفه تلمس وجنتي، لتمسح دمعة هاربة. أعتذر بتوتر، وظن أني أبكي لقصته. لم أكن أعرف تحديدا لم أبكي! أو عند أي نقطة بدأت دموعي في النزول، البكاء لم يعد كما في الماضي تعبيرا عن الألم، الدموع أصبحت إشارة أن إحساسي ما زال حيا يرزق.مسحت دموعي بظهر كفي، وسألته عن أسماء بناته، أجاب باسمين لم أسمعهما بوضوح وسط الموسيقى الصاخبة.. وابتسمت.

بعد مرور ساعة، اطمأن فيها على تبخر تأثير الكحول من رأسه، استأذن في الذهاب. كنت أشرب كأسي الرابعة، فودعني وأنا جالسة بقبلة على الخد، كزميل عمل سألتقيه في اليوم التالي. أعطاني رقم تليفونه، وطلب مني طمأنته عندما أصل لفانكوفر، وذهب.. هكذا بمنتهى البساطة. بعدها تذكرت أن هذا الرجل، الذي حكى لي قصته، سيكتشف بعد رحيله أني لم أقل له اسمي! وسأكتشف أنا لاحقا أني نسيت حفظ رقم تليفونه على تليفوني، قبل أن يفصل شحنه، لنضيع في الكون الواسع إلى الأبد.

Twitter: @ketab_n

لم تكن تلك أول مرة يحدث لي ذلك، فكثير من الناس هنا قد ينفجرون هكذا بعد طول صمت وكبت. كنت أحيانا أتساءل ما الذي يرونه في وجهي أو في هيئتي يدعوهم للكلام بهذه الصراحة، فكم من امرأة جلست بجانبي على محطة الأتوبيس وبدأت تحكي عن مشاكلها الخاصة مع صاحب البيت أو دار المسنين! كم عجوز أو حتى شاب دخل عليَّ في المكان الذي أعمل به ليطلب شيئا، وفجأة بدأ في قص حكايته عليّ! كنت أشفق على الناس هنا، خاصة كبار السن، فالتواصل الإنساني قد يكون قليل جدا، في معظم المصالح يتعامل الإنسان مع آلات لا بشر، وحتى البشر تحولوا مع الوقت لآلات.

عندما صعدت لغرفتي بالفندق ونظرت إلى المرآة، شعرت أني امرأة بلا اسم أو هوية محددة، ربما أكون شبحًا ما، شبح أمي قد تلبسني وهي تحترق أمام عينيّ، شبح أمي هو المسئول عن كل ما جرى في حياتي.

«لا... أنتِ المسئولة ياحبيبتي.. لا يوجد أشباح بهذا العالم.. وأنا وأنتِ نعرف جيدا.. أنك لا تؤمنين بهم» قلتها بصوت عالٍ « أيوا... أنا سكرانة» دققت في صورتي المعكوسة في المرآة، وضحكت.. أحب حمامات الفنادق، إضاءة قوية، مرآة برّاقة ونظيفة وكبيرة، تجعلك دائما أجمل من المعتاد. بجانب أربع أكواب من البيرة، كنت أرى نفسي في المرآة «سنووايت»، وربما أجمل.

وضعت تليفوني بالشاحن، فبدأ في الدق.. أخيرا اكتشف «آلان» غيابي!

Twitter: @ketab_n

أنا لا أصدق هذا الرجل حقا.. بل أنني لا أصدق نفسي.. كيف عشت معه كل هذه السنوات؟!

خلعت ملابسي على موسيقى جرس التليفون، رميتها في كل أنحاء الغرفة على طريقة راقصات التعري، وفي النهاية أغلقت تليفوني. أخيرا سأضع نهاية لهذا اليوم الطويل..رميت جسدي العاري على السرير، ونمت.

حضرت كعادتك في أحلامي، كنت معلمي في المرحلة الابتدائية، تشرح درس اللغة العربية بالطريقة التي أحبها، وقفت فجأة في منتصف الفصل، وصرخت بفرح وكأنني وجدت تلك الفكرة التي وجدها أرشميدس «أنا عاوزة اشم هوا..أنا هاطلع السطوح»، وجريت على السلالم صاعدة إلى السطح، ولم أستغرب عندما وجدت فوق سطح مدرستي صخورًا مربعة كبيرة كمصدّات الأمواج على الشواطئ، لم أستغرب عندما وجدت بحرا تتلاطم أمواجه في الأسفل، وتصل إلى قدميّ وأتذوق ملحها على شفتيّ ويصل رذاذها لوجنتي.

خلعت حذائي وجلست.. وقتها جئت أنت بهدوء -كعادتك- وجلست على الصخرة بجانبي، يلامس كتفك كتفي، تصل حرارتك إلى جسدي.. جلست، ودون كلمة واحدة وضعت رأسك على كتفي، وأغمضت عينيك.

صحوت من حلمي على جرس تليفون الغرفة، فتذكرت أني أخبرتهم قبل صعودي بالأمس أن يوقظوني في الثامنة.

Twitter: @ketab_n

رفعت السماعة، وسألت موظفة الاستقبال عن موعد تسجيل الخروج من الغرفة. قالت يجب أن يكون قبل الحادية عشر، طلبت منها أن تتصل بى مرة أخرى بعد ساعة لتذكرني، أغمضت عيني في غفوة، وسرعان ما رن الجرس مرة ثانية.. مرت الساعة بين الثامنة والتاسعة كرمشة عين، شكرتها وقمت.

مرة أخرى أمام المرآة الكبيرة التي تجعلني أجمل، ولكن وجهي يبدو منتفخًا قليلا، وعيناي يظهر عليهما أثر بكاء الأمس.. هل كنت أبكي وأنا نائمة؟! تذكرت الحلم، بالتأكيد لم أكن أبكي. مضى وقت طويل على آخر زيارة له في الحلم، أشعر به حولي!! مضى وقت طويل جدا، ظننت أنه كافي لكي أنساك.. ولكنني لم أنس؛ ربما لم أحاول حتى، فكلما أفتقدتك... قابلتك.

غسلت وجهي وأسناني، وشعرت أني بحاجة إلى حمام حقيقي. سددت فتحة البانيو، وبدأت في ملئه، يبدو أني لن أتوقف عن تدليل نفسي، أهمس: «كُنتِ في جرة وطلعتِ لبرة».

الساعة تشير إلى التاسعة والربع، أتحرك عارية في الغرفة الدافئة، بعض أشعة الشمس تحاول الولوج من بين الستائر المعتمة، ولكني لم أحاول فتحها.. غير مستعدة لضوء النهار بعد. رجعت وارتميت على السرير أنتظر امتلاء البانيو، فتحت موبايلي، وسرعان ما بدأ في الإعلان عن كل الرسائل المتأخرة وكان آلان قد اتصل كثيرا، وترك الكثير من البريد الصوتي، لم يستطع أن يفهم أن ما بيننا انتهى.

Twitter: @ketab_n

لم يكن لديّ أي رغبة في التحدث معه الآن، إلا أنها خطرت على بالي فكرة، ففتحت بياناته، ونقرت على رقم مكتبه. جاءني صوت الجرس، ثم صوته هو:«الو... الو..» لم أرد.. «الو... الو...»

أغلقت الخط، ووضعت التليفون، وسرعان ما اتصل هو وترك رسالة.أرسلت له رسالة نصية «لا أرغب في الحديث الآن، سأتصل عندما أستطيع»، فلم يتصل ثانية. إذا هو في العمل؛ لا داعي للقلق. وهل ظننت بأنه سوف يتوقف عن العمل عندما تذهبين، ويدور في الشوارع للبحث عنك؟! غبية... هذا الرجل مدمن عمل، عمله هو أهم شيء في حياته، وأنتِ مجرد آداة لتفريغ رغباته. اختفاؤك قد يحدث فراغا، ولكن هذا الفراغ لن يزيد عن ١٠ دقائق أو ربع ساعة يقضيها معك قبل النوم، لكنه بالتأكيد لن يأخذ يوما إجازة ليبحث عنك. كان الأولى أن يأخذه ليقضيه معك، عندما كنتِ تتوسلين إليه أن يقضي معك بعض الوقت أو أن تذهبا في رحلة سويًا. اهدئي بالا، وخذي حمامك، أنت لا تثيرين قلق نملة في هذا الكون الواسع، ولا أحد حقا يبالي أين أنت الآن، سوى موظفة الاستقبال التي ترغب في رحيلك، لتضع نزيلا جديدا مكانك.

ارتديت ملابسي ولملمت أشيائي، أخذت حقيبتي وسلّمت المفتاح، وتوجهت للسيارة. قبل أن أخرج من تيمينز، توقفت أمام إحدى محطات البنزين، اشتريت بعض المياه والعصائر المعلبة، وبالطبع القهوة وكعكة «دونتس». وضعت في سيارتي المؤونة اللازمة للرحلة، الشمس خلفي مازالت، والمنظر على جانبي الطريق يشي بطبيعة خلابة..أشجار وجبال ومسطّحات مائية تبدو كأفرع لأنهار

Twitter: @ketab_n

وبحيرات صغيرة لا أعرف اسمها، يجب أن أقود هذا النهار ٨ ساعات على الأقل. تقول الخريطة أني في الطريق إلى «ثاندر باي» ومنها إلى «وينينباج».. هذا الاسم يذكرني بشيء، ولكن لا أستطيع تذكر ماهو!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كوكران

على بوابة المدينة، استقبلني تمثال ضخم لدب قطبي، مكتوب تحته «كوكران وأهلا بك في مقاطعة أونتاريو». ككل المدن الصغيرة في شمال أمريكا، يدخلك أحد مخارج ترانس كندا إلى شارع يفضي إلى ميدان صغير، منه تتفرع أربعة أو خمسة شوارع، ومنها طريق آخر يخرجك مرة أخرى إلى الطريق السريع، عندما تأخذ أكبرها ستقودك في الغالب إلى قلب المدينة، حيث الكنيسة الصغيرة والمستشفي، وحيث البيوت صغيرة معظمها يتكون من طابق أو اثنين، ووسط البلد التي ماهي سوى شارع يمتلئ بعدة مقاهي ومطاعم، وقد يأخذك لمشى يطل على الماء لو كانت المدينة تطل على نهر أو بحيرة. وكوكران لها بحيرة صغيرة تسمى كوماندو، هناك قررت أن أترك سيارتي قليلا وأجلس أمام الماء.

يتلاعب الماء دائما بحالتي المزاجية، ويؤثر عليها.. ربما يكون تأثير الماء على رأسي أكبر من تأثير الخمر. في سنوات طفولتي الجافة، لم ينقذني سوى رعاية عمة حنون، أخذتني ضمن أطفالها لفترة،

Twitter: @ketab_n

وعاملتني مثلهم، في وقت لم يكن هناك من يحنو عليّ. كانت هي تأخذ رأسي الصغير وتضعه على صدرها أو تضمه بذراعيها، فأطمئن. كنت في الثانية عشر عندما أخذتني معها في إجازة، لأرى البحر لأول مرة. حاولت أن تهدهد أسئلتي الفضولية عن البر الثاني، وكانت إجاباتها وقتها تعني لي شيئا واحدا، هو أن البر الثاني يعني الخلاص، الذي لطالما حلمت به ولم أطله.وها أنا الآن ياعمة أجلس على البر الثاني وحدي هذه المرة، ألعق جراحي كقطة، وأتذكر زيارتنا المتكررة للبحر، وجلساتنا الهادئة أمامه.

كانت جدتي لأبي لا تثق بأحد سوى هذه العمة، ابنتها الكبرى، وبئر أسرارها. أبي نفسه كان يحترمها كثيرا، ويعاملها وكأنها أمه الثانية، لم يكن ليرفض لها طلبا. ولم تكن عمتي ملاكًا، ولكنها كانت بشرا يخطئ ويصيب. ولكنها كانت كائنًا طيبًا وحنونا على الجميع، بما فيهم أنا. لذلك، عندما جمعت أشيائي وتركت البيت في المرة الأولى، بعد تخرجي من الجامعة بأيام، كانت الوحيدة التي تعرف قراري ومكاني. كانت خائفة عليّ، ولكنها كانت تثق بي، ولا أعرف وقتها من أين جاءت بهذه الثقة وهذا الإيمان. والغريب، أنها شجعتني وكأنني أفعل ما عجزت هي عن القيام به. ثقتها هذه هي ما جعلتني دائما أصر على النجاح، وألا أعود إليها منكسرة ومهزومة.

مر عام ونصف في العمل بالفندق الساحلي، وفي التعرف على المدينة السياحية الصغيرة. كان شعوري بالحرية، والشباك الصغير لمكتبي الذي يطل على البحر يعوضاني عن شراكة الغرفة والحياة مع أشخاص قد لا أرتاح إليهم،وعن مضايقات المدير«النسونجي»،

Twitter: @ketab_n

ونظرات الناس من حولي في المدينة الصغيرة، حيث عيون الناس سجن كبير. كان غموضي لغزا محيرا بالنسبة للجميع، فأنا لا أشبه هذا النوع من الفتيات اللاتي يعملن بهذا المجال، منطوية وكثيرة القراءة، لست شديدة الاهتمام بنفسي، ولا أضع سوى القليل من مساحيق تجميل، ولا أعطي أهمية كبيرة للرجال أو للمال، كما هي عادة العاملات بهذا المجال. كنت أشعر أني لن أطيل المكوث هنا، وأنها مجرد محطة ومرحلة انتقالية، تساعدني على الخروج من بيت أهلي إلى مكان بعيد، حيث لا أحد يعرفني أو يعرفهم، أعود بعدها للحياة بشكل مستقل في القاهرة، وأفرض إرادتي دون أن أحتاج إلى مساعدة مادية منهم.

وقتها ظهر في حياتي يوسف، كانت بداية التعارف غريبة، أثناء أحد إجازاتي التي قررت فيها -بدلا من العودة للقاهرة وزيارة عمتي- أن أتوغل أكثر في عمق سيناء، لأرى أماكن جديدة. كنت أقرأ كعادتي على أحد شواطئ نويبع، عندما سمعته يتكلم عني مع أصدقائه. كان أحد أصدقائه يثني على جمالي الهادئ وجسدي، وكان هو يذم فيه بألفاظ قوية وخادشة للحياء. كان يظن أني أجنبية في البداية، ولن أفهم ما يقول، فمن الصعب أن تتواجد فتاة مصرية وحدها في مكان مثل هذا.

ولكنني فاجأته بتعليق يشي بفهمي وسماعي كل ما قيل في حقي، ورحلت. في المساء، وقف يعتذر أمامي في المطعم، ويخبرني أنها طريقته في صرف نظر أصدقائه عن الفتاة التي تعجبه فعلا. ضحكت لمكره، وسامحته، لأنه كان وسيما جدا، وبريئ جدا، وكان بعينيه شيء يناديني.

Twitter: @ketab_n

كانت الشمس قد لوّحت كل منا، وبدت بشرتنا بلون واحد، وكأنهما قطعتان فنيتان نحتتا من نفس الحجر. في الأيام التالية، تقابلنا كثيرا وتحدثنا أكثر، ولأول مرة أشعر أني أحتاج لاستخدام سحري وتأثيري على رجل، أريد أن أمتلكه، أريده أن يكون لي وحدي، وسأفعل أي شيء ليحبني يوسف؟ لم يكن أي منا يهتم لجذور الآخر، ولم تكن قصصنا القديمة سوى حدوتة تبادلناها لزوم المؤانسة والذوبان. تركني أخرج كالشعرة من العجين من كل الاستجوابات التي كنت أخشاها قبل الوقوع في الحب، لم أقل له وقتها لم خرجت من بيت أهلي أو من هم، ولم يسألني مثل الكثيرين كيف تركوني أسافر وأعمل وأحيا وحدي. كان يدعمني بكل قوته، عندما أحدثه عن عملي وأحلامي الكبيرة ورغبتي في التحقق.. كان يهز رأسه، ويؤكد أنه يعرف أني سأحقق أحلامي يوما ما. لا أعرف هل كان هذا اليقين بفعل الحب، أم هو بفعل المخدرات التي كان يتعاطاها!

أتذكر ذلك اليوم الذي اتصلت فيه به أبكي تحرش المدير بي. في ذلك اليوم، وبعد انتهائي من ساعات عملي، طلبني المدير في حجرته بحجة الاستعلام عن بعض تفاصيل العمل. طلبت منه أن يقابلني في بهو به صالون يقع بين الغرف. بعد أن تحدث معي لدقائق، تأفف من جلستنا في الطريق، اقترحت أن يؤجّل هذه المناقشة لليوم التالي في المكتب، فطلب مني مباشرة الذهاب إلى غرفته، فرفضت بشدة، وذهبت إلى باب غرفتي، فتبعني وكاد أن يدخل ورائي الغرفة، ولكني استدرت ووضعت يدي على الباب أمنعه من الدخول. كنت خائفة وأرتعش بداخلي، ولكني لم أعرف كيف جاءتني كل هذه الشجاعة

Twitter: @ketab_n

لأقول لا، ربما لأن وجود يوسف يقويني وساعدني على الرفض بهذه الحدة، حتى لو عرّضت نفسي لخسارة وظيفتي.

بمجرد أن دخلت غرفتي، اتصلت به وحكيت له كل شيء، فهدأ من روعي واختفى عدة ساعات، ليأتي مرة ثانية في اتصال، يطلب مني أن أخرج للقائه خارج الفندق. لم أصدق وقتها أنه قد قطع كل هذه المسافة من أجلي، خرجت أجري دون وعي، وارتميت في أحضانه.

كانت المرة الأولى التي أُسقِط فيها حجابي وغموضي في المدينة الصغيرة، أخذني وتمشينا على البحر، جلسنا وحكيت وبكيت، وسقطت قطرات دموعي في كفه، وكفاه يحتضنا وجهي. ظهر من تحت الأرض عدة شبابفي حالة سُكر، اقتربوا وتحرشوا بنا، وطالبوه أن يشاركوه فيّ. عندما حاول يوسف إبعادهم، ظلوا يرشقونا بالحجارة ويسبّونا بأفظع الشتائم، كان يحميني بجسده، ويتلقى الضربات عني، حتى خرجنا للطريق وصعدنا إلى السيارة، وأوصلني لسكني، وودعني ورحل.

في اليوم التالي، انتشر الخبر في المدينة الصغيرة أن لي حبيبًا، وعلم مديري بالأمر، ولم يكن قد نسى بعد إهانة الأمس، وظن أن هذا ما يمنعني عنه. ولأن الحب من المحرمات في بلدنا، ساومني على البقاء في العمل، فكتبت استقالتي بيدي ورحلت. ولكني لم أعد أبدا إلى بيت أهلي.. جلست يومها أمام البحر أسأله إن كان ما فعلته خطأ؟! أجابني: ستعرفين الإجابة عندما تصلين للبر الثاني.

Twitter: @ketab_n

الآن أنا أعرف الإجابة، لم يكن خطأ، حبي ليوسف لم يكن خطأ، إنه زادي على الطريق، كل تلك اللحظات الحلوة التي عشتها معه، كانت الطاقة التي تحركني إلى الآن، عندما أتذكر كيف سامحني وسامحته على كل الأخطاء الكبيرة والصغيرة التي ارتكبناها في حق بعضنا البعض، عندما أتذكره الآن أتأكد أني لازلت قادرة على الحب، على الغفران، وعلى العطاء، وأعرف أني لا زلت حية.

لم يكن هناك من يأويني غيره، بالنسبة لأهله الأغنياء كان مجرد طفل، ينتظر مصروفه ويسبب الكثير من المتاعب، ولكن لي كان رجلا بكل ما تعنيه الكلمة، كان رسولا أرسله لي الله في وقت كنت أقرب للضعف منه إلى القوة، كان من الممكن أن أتحول إلى مسخ لا أستطيع النظر له في المرآة، ويوسف أنقذني.

بعد تركي البيت، أغلق أبي وجدتي في وجهي كل الطرق،لأنهم خافوا كلام الناس بعد عودتي. الوحيدة التي بقت على اتصال هي عمتي، ورجوعي لها كان يعني فشلي في الاعتماد على نفسي. كان الحل الوحيد هو إيجاد عمل آخر يوفر سكن، أو إيجاد سكن وعمل. ولكن حتى يحدث ذلك، لم يكن هناك سوى الشارع أو بيته الصغير.

أتذكر ليلتها كيف تسحبنا بهدوء على درجات السلم صاعدين إلى شقته الصغيرة، وكيف كانت جنة بالنسبة لي. تركت ملابسي وارتديت ملابسه، كنت أنام في حُضنه آمنة، وكنت أنتظره ليعود لي بالطعام، ويجلسني بجانبه ويؤكلني بيديه وكأني طفلته. كانت كل لحظة معه تمحو سنيناً من الوجع قبله، وسنين من الألم جاءت بعده. لا زلت كلما

Twitter: @ketab_n

ضاقت بي الدنيا أتذكر تلك النظرة في عينيه، والتي لم تكن تعني سوى الحب، تلك الدقائق التي كنا نجلس فيها أمام التليفزيون ويلعب في خصلات شعري، وذلك اليوم الذي مللت فيه الحبس داخل البيت وأردت النظر من البلكونة، فجعلني أقف وراءه وأرى العالمن فوق أكتافه وبين ذراعيه، وكأني ظله. للحظات تمنيت لو هذه الأيام تدوم للأبد.. كان حضنه ومازال أكبر من استيعابي، وخارج حدود تصوراتي، ولذلك مضى وقت طويل ولم أفهم بعد كيف كان ما بيني وبينه ساحرا ورائعا إلى هذا الحد، على بساطته!.. كيف تركني دون أن يمارس معي الجنس كاملا طوال تلك الأيام.. كيف كسر كل القواعد التي لقنوني إياها عن تغرير الرجل بالمرأة، وعن الجنس، وعن انتهاز الفرص، وعن قسوة الرجال.. كيف دخلنا الجنة وخرجنا منها دون أن نخطئ، وكيف مررنا بحلقة النار دون أن نحترق!

بعد أسبوع في جنة يوسف، كان الخروج لازما من أجل العمل،ومن أجل رجوع يوسف لدراسته وحياته العادية. وأخيرا وجدت عملا، ووجدت سكنا، ووجدت روحي معه.. ولكن بلا غد. فهو رجل من عائلة غنية، تعدّه ليرث كل ما لها ويديره يوما ما، وأنا فتاة بلا عائلة من الأساس. كان رجوعي للقاهرة أشبه برجوعي للواقع المر بعد الحياة في حلم جميل، رجوعي للزحام والصراعات، ولعيون الناس التي تعرف يوسف جيدا، ولذلك يتساءلون طوال الوقت «مين البنت اللي مع يوسف المنياوي؟»

هل سيصدق أي شخص أننا لم نمارس الجنس كاملا إلا بعد لقائنا الأول بسبع سنوات كاملة.

Twitter: @ketab_n

في مجتمع كالذي أعيش فيه الآن، مع كل هذا الحب الذي أحببته ومازلت أحبه له؟.. ازدواجية رهيبة أن يفعل حبيبان كل شيء معا، ويتوقفان عند عذرية الجسد، ازدواجية جعلت كل شيء معقداً، وجعلت من ممارسة الحب في مجتمعاتنا وجبة غير مشبعة ونكتة سخيفة.

أهمس لنفسي جلوسي الآن في هذا «اللامكان» هو النكتة الحقيقية، فلأتحرك قبل أن يضيع النهار. وقفت وبدأت في تنظيف ملابسي من الرمال، وتوجهت للسيارة. عدة ساعات لأصل لجرين استون، وفي الطريق سأمر بمدينتي كابُس كاسينج وهيرست، في الغالب سأقضي ليلتي الثانية في جرينستون أو ثاندر باي على حسب قدرتي على القيادة.

Twitter: @ketab_n

جرين استون

بعد خروجي من بيت يوسف، اشتركت مع عدة فتيات في شقة بجاردن سيتي، وعملت موظفة استقبال بأحد الفنادق الكبرى. كان يوسف حولي طوال الوقت، وكانت حياتي كلها تدور حوله. كان لديه دائما الكثير من المال، ولكني لم أكن أبدا أطمع فيه أو أطلب منه، حتى في أشد أوقاتي تأزمًا. كنت أستلف من صديقاتي لقضاء حاجاتي البسيطة، ولا أسأله أي شيء. لذلك كان يعتبرني إنسانة مختلفة عن الجميع، كان يراني الشيء الوحيد الحقيقي في حياته وحبه الأول، لذلك لم يتردد بعد إعلان نتيجته وحصوله على البكالوريوس بعد مرات رسوب عديدة أن يفاتح أباه في رغبته الزواج مني. في البداية، سمعه أبوه بهدوء، وبعدهابيومين كان هناك من يجمع المعلومات عني، وينبش كل تاريخي الشخصي.

«إيمان نفسها ليس بها أي عيب _هكذا صارحه أبوه_وضعها العائلي والاجتماعي مشين، مستحيل أن تصبح هذه عائلة أُم أولادك وأحفادي».

Twitter: @ketab_n

لم يشعر يوسف بظلم في حياته مثلما شعر في هذه اللحظة.. ثراء أبيه كان دائما نكبة عليه، بسببه كانت تحيطه دائما شلة من المنتفعين وأصحاب المصالح.. بسببه جرت قدماه منذ المراهقة في إدمان المخدرات التي لا يستطيع أن يتوقف عن تعاطيها.. بسببها كان يتورط في الكثير من الجرائم من رشاوي وأعمال منافية للأخلاق والقانون، ورغم أنه لا يحاسب عليها كالآخرين، إلا أن الواقع المرير ووقوعه دائما في الهوة بين ما يعتمل في صدره وما يفعله، يدفعه دفعا إلى الهروب منه، إلى ارتداء ماسك الشاب الجرئ الذي لا يأبه لشيء ولا يرغب في شيء سوى مزاجه.. حتى قابلني، وأحس أني الشيء الوحيد النظيف في حياته، وأحب كثيرا أن يبقيه نظيفًا وطاهرا. حتى عندما كنا معا، كانت نظراتي المنبهرة واندهاشي كالأطفال لكل ما يفعله، ينسيه كل الخبرات التي مر بها في دنيا المومسات وفتيات النوادي، ويعود معي طفلا يكتشف العالم من جديد.

«إيمان ليس بها عيب، ولكن أهلها...!!» وماذا عن أهله هو؟! هو الذي يعرف جيدا كيف تكونت ثروة أبيه، وكيف ارتفعت المباني التي يجيد بناءها، هل يشرفه أن يكون أبوه جد لأبناء إيمان؟.. تساءل في وجع... ثم قالها لي في إحدى الليالي «أنتِ أطهر من ذلك». كل هذا وعمري لم يتعد الثلاثة وعشرين عاما.....

فجأة تحولت حياتي إلى مشهد كلاسيكي وكليشيه من فيلم سخيف، ذكرني برواية «غادة الكاميليا»، طلب أمير أخو يوسف مقابلتي، وأمرني بالبعد عنه.. ساومني مرة على المقابل، ثم هددني في النهاية.

Twitter: @ketab_n

«إيه الجنان ده!» لماذا أشعر أني دخلت في أحداث فيلم هندي دون قصد؟! وهل قربي من يوسف حدث كبير إلى هذا الحد، الذي يصل إلى عرض أخيه الكبير رشوة عليّ، وعندما أرفض يهددني بتشويه وجهي بماء النار؟!

لم أكن أظن أبدا أن علاقتي بيوسف قد تخص شخصا غيرنا، فأنا حتى لم آمل في الزواج منه، لم أفكر فيه حتى أو أطلبه منه، كل ما أردته هو أن يبقى معي وحولي، كنت أشعر أنه ظهري الوحيد في هذه الدنيا، ومنذ قطع أكثر من ٧ ساعاتقادما لشرم، فقط ليجلس معي ويطمئن عليّ لدقائق، كنت قد قررت أنه الوحيد الذي يستحق أن أهبه روحي متى يشاء.والآن... أصبح من اللازم عليّ أن أتجنبه وأتحاشاه وأبتعد عن طريقه، وإلا...! كنت أعرف أنه ليس مجرد تهديد.

وقتها لم أكن أعلم أنني سأقابله مرة أخرى بعد عدة سنوات كان خروجي من حياة يوسف صدمة قاسية لكلينا، جعلته ينغمس أكثر في الشرب والمخدرات، وفي صداقة الفتيات الأخريات. عدة شهور في هذه الحالة كانت قادرة على تحويله إلى هيكل عظمي وإنسان عصبي لا يمكن احتماله، كانت مشاكله لا تنتهي، ومحاولات الأب والأخ الأكبر لاحتوائها في كل مرة كانت مرهقة، حتى ليلة الحادث الأخير. وقتها قرر الأب أن يرسله إلى النصف الآخر من الكرة الأرضية، لحمايته من عقاب جريمة ارتكبها، وآملا أن تعيد حياة الغربة تأهيله وبناء شخصيته.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ثاندر باي

«بيت صغير بكندا/ مابيعرف طريقه حدا/ قرميده مغطى بالتلج / وكل المرج.... بابه ما إله مفتاح/ بالي مرتاح... بأقعد وحدي منسية ع شبابيك بيتي الصغير بكندا!!!!!».

يذكرني صوت فيروز دائما به، لم يخرجني من قصة يوسف سواه..!

«بيت صغير بكندا» أصبح هذا حلمي الجديد، منذ وصلتني أخبار سفره إلى هناك. كان اختراع الإنترنت في بدايته، واستطعت أن أتواصل معه عبر الأيميل عدة مرات. كان يوسف يحكي لي أخباره باقتضاب، وكان غاضبا مني لم يزل، لم يستطع مسامحتي على طريقتي في تجاهله واخراجه من حياتي بهذا الشكل.أتذكر كيف فوجئ بي أرد له سلسلة ذهبية بها قطعة من الماس، كان قد أهداها لي يوما. كنت أقول له دوما إن هذه السلسلة هي كنزي الوحيد، وأنه ليس لدي في هذه الدنيا ما هو أغلى منها، كنت أرتديها طوال الوقت، وألمسها كلما خطر على بالي.

Twitter: @ketab_n

عندما توقفنا بسيارته أمام الكورنيش، في تلك الليلة بعد مقابلتي لأمير، لم أكن أرتديها، كنت أكورها بين أصابعي وأعبث بها، حتى تركتها في يده، وبحت له برغبتي في إنهاء علاقتنا. كان غاضبا للغاية، غاضبا لدرجة لم أتصورها أبدا، كل غضبه جمعه في قبضه على هذه السلسلة وتطويحها على طول ذراعه في النيل. في نفس اللحظة، شعرت أن جزءًا من روحي قد ذهب، كنزي الوحيد فُقد، وظهري قد انكسر. ولم يخرجني من هذا الوجع سواه، عاشق فيروز كما أحببت أن أسميه، تساءلت «أين أنت الآن يا ترى؟! هل تتذكر تلك اللعبة، عندما كنا نتسابق على المقهى لمعرفة أغاني فيروز؟! »

«علموني»

« أعرفها»

«طيب، سمعت بيت صغير بكندا؟»..

«لا لم أسمعها! هل هذه أغنية؟ كيف فاتتني؟!»

أضحك..

«أنت تضحكين عليّ!!»

فأضحك أكثر، فترد: «أوك، نقطة لك».

لا زلت أتذكر وداعنا قبل سفري على التكعيبة، وإصراره على توصيلي للبيت، عندما سألته: «قولي حاجة افتكرها لما توحشني!... » فرد بحنان شديد: «في حاجة مني جواكي». ظننت أن قصة يوسف ستنسحب تدريجيًا من دمي، لتبدأ قصة أخرى.

Twitter: @ketab_n

لكن هذه المرة كانت القصة مختلفة..عندما دعاني عاشق فيروز للعشاء، لم أقاوم محاولاته لغوايتي، حديثه عن استمتاعه بالطعام في حضوري، متابعته لي بعينيه، طلبه بأدب شديد أن يلمسني، يقول ماركيز «إن الجنس هو العزاء الذي يلجأ إليه المرء عندما لا يحصل على الحب»، فهل كنت بتسليمي جسدي لعاشق فيروز أعزي نفسي في فقدان يوسف؟ لا أعلم، ربما هو القدر لا أكثر.

«دي أول مرة اشوفك بتدخني»

ضحكت وأنا أستلقي عارية لأول مرة بهذه الجرأة أمام رجل، ثم قلت: «ويمكن تكون آخر مرة»

رد: «آخر مرة تدخني ولا آخر مرة أشوفك..؟!»

لم أرد أن أعطيه ردا يريحه، فأجبت: «أنت تفتكر إيه..؟»

كان يقبل أصابع قدمي ويقول لها كم أنا جميلة.وكنت أتصرف وكأني واحدة غيري، شخصية جديدة تلبستني تماما بعد رحيل يوسف.

«عاهرة»!

هكذا كنت أشتمني بعد نوبات العذاب والبكاء الطويلة.

«انتي لعنة»

قالها لي ذات مرة، كنت أترك مكالماته دون إجابة، وأضرب له مواعيد ولا أذهب..

Twitter: @ketab_n

كنت أنتقم فيه من نفسي، لأني كنت أرى في حبه لي حبي أنا ليوسف، الذي لم يسامحني أو يتوقف لحظة ليفهم ما حدث، ولم يعد كما كان. عاشق فيروز يفكر جديا في الزواج مني، يكسر قاعدة جديدة ظلت سنين محفورة في ذهني، عن أن الرجل لا يتزوج أبدا أمرأة مشيت معه. ومع ذلك، أهرب منه وأتملص!

عاشق فيروز ليس رجلا تافها أو ضائعا كما يبدو، هو فقط رجل يحب، صحفي وفنان، سترفعه الثورة على أكتافها، وسيظهر كثيرا في وقت لاحق على شاشات التليفزيون، ليعطي حديثا ممثلا شباب الثورة.

عاشق فيروز سيظل مخلصا لي لفترة، وسيعتبرني أيقونته الجنسية، ولن أفهم أبدا لما كان يراني بهذا الشكل، أنا البنت العادية، صاحبة العيون المليئة بالوجع.

وحده الصوت والصدا / فكر فيك وباشتاق لك / باشعل النار/ وبانظر ترجع حبيبي / تبقى حدي وما تتركني غريبة.

آه يا يوسف... علاقتنا، التي استغرقت عشر سنوات من عمري، أخذت مني أكثر من نصف عمرها لكي أتخطاها. لم يبق منها سوى ذلك الوجع الخفيف، الذي أشعر به الآن في قلبي وأنا أتذكرك، ذلك النقر الهادئ الذي يشبه نقطًا منسابة من صنبور معطل، إيقاعها مضبوط مع دقات الساعة، وكأنها تحفر مع الوقت لوحتها الخاصة.. ثقب في القلب عميق، يمر منه الهواء، فيملأ فراغا كنت تحتله، ويداعب جروحا، رغم مرور السنوات وجفافها، لا زال يؤثر بها

Twitter: @ketab_n

الهواء.

آه يا يوسف... هناك لحظات كانت معك ولك وحدك، لم أستطع تخطيها أبدا.. قبلتنا الأولى، ونشوتنا وارتعاشتنا الأولى معا.

أنت العاشق الوحيد الذي أهداني أكثر ما أحب في العالم، أتذكر تلك الليلة التي خططنا لها طويلا، وبمجرد أن وصلنا تلك الشقة الصغيرة في المدينة الساحلية، تعرينا تماما واستلقينا على السرير لمشاهدة فيلم ما، ثم غرقت أنا في نوم عميق، وتركتك ولم أصح إلا في الصباح، وأصبح الأمر نكتة بيننا.

كيف سقطت أنا في النعاس وتركتك مستيقظا طوال الليل؟ حكيت لي يومها كيف كنت أبتسم في نومي عندما تداعب جسدي. كنت قليلا ما أشعر بالأمان، ولكنني كنت أشعر بالأمان معك. لم أخف المخاطرة، ربما لأنني -كالعادة- لم يكن لديّ ما أخسره..! ولم اتوقع أن أخسر قلبي في نهاية قصتنا، فتركته ورائي، هو وكل الأشياء التي كنت أحبها معك. هربت منها ومنك، أو هكذا خدعت نفسي، لأنني في الحقيقة كنت أتتبعك.

«لا أحد يموت من الحب» يموت الناس من الجوع، الفقر، المرض، الحرب، أحيانا من القهر والحسرة، يموتون ببساطة في حوادث الطرق، ولكنهم لا يموتون من الحب. أخذت يمين الطريق عندما أصبحت رؤيتي مشوشة تماما بسبب الدموع. الوقت اقترب من الظهيرة، والشاحنات العملاقة تقطع الطريق من كل الجوانب. لايمكنني البكاء الآن بأي حال من الأحوال.

Twitter: @ketab_n

لو أنني أغامر بحياتي فقط لكان.. عادي.. في داهية.. ولكنها أيضا حياة آخرين على الطريق.

كانت أذيتي لنفسي سهلة ومقبولة تماما بالنسبة لي، ولكني لم ولن أسمح لنفسي بإيذاء الآخرين، هذا هو الخط الذي يفصل بيني وبين الآخرين، وبيني وبين الله، وبيني وبين الجنون، وبيني وبين العذاب، أنا شخص يفعل ما يحلو له نعم... ولكن دون أن يؤذي أحدا.

كانت هذه هي ليبراليتي الخاصة، وفلسفتي في الحياة.»

لذلك خرجت مع أول مخرج، ودخلت مدينة صغيرة لا أعرفها.

Twitter: @ketab_n

انترنشيونال فولز

لقد أصبحت قريبة جدا على الحدود بين أونتاريو وميتوبا، وهذه المنطقة على وجه الخصوص تبدو كمنطقة حدودية بين كندا والولايات المتحدة الأمريكية. قررت أن أتوقف لآخذ قهوة وشيئا للأكل، وبعدها أكمل طريقي لـ «وينيباج» وأبيت ليلتي هناك. أرهقني كثيرا استرجاع الذكريات، ربما أكثر من قيادة السيارة.. شحنات المشاعر التي تتلقفني منذ بدأت هذه الرحلة تدخلني في دوامات.

اندهشت لأني لم أتوقف طوال الأعوام السابقة لأسترجع كل هذا. كنت أحيا فقط لأني أحيا، ولأن الحياة داخلي أقوى من كل شيء. لم أيأس للحظة، ولم أفقد روحي المثابرة في الطريق، طوال الوقت كان لدي ما أفعله وأنجح فيه، وكان لدي من أحبه، وكان لدي حلم أتمناه وأود لو يتحقق. كنت أعرف أن الله لا يأخذ شيئا دون أن يبدله بشيء، ولا يضيع حلما إلا ويزرع في قلبي آخر.

Twitter: @ketab_n

بعد سفر يوسف بفترة، تغيرت الكثير من دوائر معارفي، وازدحمت حياتي بالبشر. ولكني شعرت في عدم وجوده بصعوبة الحياة. كنت أعمل في «شيفتات» متتالية، وكنت أعمل مع شركات سياحة ومحلات من الباطن، حيث أرسل لهم زبائن الفندق في مقابل عمولات. كنت أكسب كثيرا، وكنت أدخر المال دون أن أعرف لما أفعل هذا! لم يكن هناك هدف محدد لكل حياتي في ذلك الوقت، ولم يكن لدي أي أحلام سوى أن أراه مرة أخرى. كانت زميلاتي في السكن يعملن في مجال الصحافة والفن، جذبتني أكثر من مرة جلساتهم على مقاهي وسط البلد، هناك تعرفت على عاشق فيروز والكثيرين غيره، ورطت جسدي في عدة علاقات، كانت تضعفني فكرة أنني لن أرى حبي الوحيد مرة ثانية، وأن كل الرجال بعده متساوون.

ولكن حدثاً بسيطاً جدا على المقهى قد يغير حياة إنسان إلى الأبد. في ذلك اليوم، كنت أجلس وحيدة في انتظار إحدى صديقاتي، حين جاء «حاتم».

حاتم واحد من شلة القهوة، لا أعرفه جيدا، ولكني رأيته يعزف في عدة حفلات، من تلك التي يدعوني لها أصدقائي في أيام الإجازات، كان حاتم حزينا جدا ومكتئبا، لذا طلبت منه أن يجلس معي، على «قهوة الحرية»(*) وأمام زجاجات البيرة وطبق ترمس، حكي لي حاتم قصته التي توجع القلب مع حلا وأهلها. تماهيتتماما مع القصة، وشعرت بكم الظلم الذي وقع على الحبيبين، وكدت أن

(*) أحد مقاهي وسط البلد الشهيرة

Twitter: @ketab_n

أبكي أو أن أقوم لأحتضنه. ولكن عندما وصل في قصته لسفر حلا لكندا للدراسة تحت ضغط أهلها، لم أشعر بنفسي سوى وأنا أقول له:

«طب ما تسافر لها... حاول تعمل أي طريقة... كونوا مع بعض هناك... ماحدش هيقدر يفرقكو».

كان يردد: «إزاي بس؟ إزاي؟»، وكنت أتساءل هل أقول هذا الكلام لحاتم أم لنفسي، هل يمكنني فعلا السفر ليوسف؟! لا زلت أعيش على أمل لقائه، أرغب في مواصلة رحلتي معه، لم يكن برأسي سيناريو معين، ولكني سألت حاتم: «هو الواحد محتاج ايه عشان يسافر كندا؟».. وكأني أساعده، وفي الحقيقة كنت أبحث عن إجابة لنفسي.

«فيزا وتذكرة سفروأكيد فلوس كتير قوي وانتي عارفة..!»

«آه... عارفة أكيد... وحاسة بيك جدا» أربت على ركبته، وأطلب بيرة جديدة.

«ليه لاء؟» أقول لنفسي. في اليوم التالي استخرجت جوازًا للسفر، ثم سألت عن تفاصيل التقديم للفيزا، عرفت أنها قد تكون صعبة للغايةإن لم يكن لديك رصيداً كافياً بالبنك يغطي الرحلة، ولكني كنت آمل في أن الله لن يخذلني. أحضرت وثيقة من البنك تثبت وجود مدخرات لدي تكفي وزيادة للرحلة، ساعدتني صديقة على حجز رحلة طائرة قابلة للإلغاء في حالة عدم حصولي على الفيزا، حجزت موعد مع السفارة، وفي اليوم المحدد، لا أعرف كيف؟ ولكني حصلت على الفيزا!

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

وينينباج

أخيرا وصلت إلى غرفتي بالفندق في وينينباج. أشعر أن لا رغبة لي في فعل أي شيء سوى استرجاع ذكريات تلك الأيام. لقد ظللت سنوات أهرب من الذكرى، وأحاول التخلص من الحكاية، لكنها ظلت قابعة في أركان عقلي المظلم، تؤثر على كل ما أفعله دون أن أشعر. دخلت غرفتي قبل الغروب بقليل، فتحت ستائر الشباك، وأخذت أراقب المدى البعيد، وهمست لنفسي «بالتأكيد أن الله أرسل لي حاتم في هذا اليوم..» جمعت أهم ما أملكه في حقيبتين.

تركت كتبي وأشيائي الأخرى لصديقاتي.. كنت أعرف أنني طالما أغلقت بابا ورائي وخرجت... فلن أعود.

تعمدت أن أرتدي كعبا عاليا، وأن أتزين، ودخلت المطار بروح جديدة. لم أكن أعرف ما الذي ينتظرني على البر الثاني، ولكني كنت سعيدة، لأني أخيرا أستطيع العبور إليه. كان ركوب الطائرة مفرحا، كم شعرت أثناء إقلاعها أن العالم حقا صغير، وأنه ملئ بالبلاد

Twitter: @ketab_n

والشوارع والبيوت والغرف والأشخاص والحكايات، وكل شخص يظن أن حكايته هي الأهم، ويظن أنه العالم، ورغم هذا فهو بالنسبة للعالم.. لا شيء.

خمس ساعات إلا عدة دقائق، رحلتي الأولى من القاهرة لباريس. في مطار شارل ديجول، شعرت وكأني في فيلم من أفلامي الأجنبية المحببة. لم أعرف كيف أقرأ اللوحات، وتعذبت كثيرا لأجد من يحدثني الإنجليزية أو يفهم إنجليزيتي. وصلت إلى المكان الذي سآخذ منه طائرتي الثانية إلى مونتريـال، وظللت أدور مبهورة، على محلات الشيكولاتة، والمقاهي، والسوق الحرة المليئة بالعطور ومستحضرات التجميل ذات الماركات العالمية، الخمور، والهدايا التذكارية. قررت أن أدور في المطار لأرى أكبر جزء منه، فلا زالت تفصلني عن طائرتي ثلاث ساعات كاملة.

نمت في طريقي إلى مونتريـال، وصحوت لأجد نفسي فوق المحيط ولم يمر سوى نصف الوقت والمسافة. شاهدت فيلما، ولعبت بعض الألعاب على شاشة الطائرة، وأكلت وشربت.. ولازلت في الطريق! لم أتخيل أن كندا بعيدة إلى هذا الحد. عندما وصلت، أخذت أتوبيساً من المطار لوسط البلد. كنت أتلفت مبهورة بكل ما حولي..النظافة، والنظام، رغم عملي في السياحة واحتكاكي الدائم بأرقى الأماكن في مصر، ولكني لم أر جمالا مثل هذا. وصلت في بدايات الصيف، حيث مونتريـال في أبهى أوقاتها، واتجهت إلى الفندق الصغير الذي استأجرت إحدى غرفه، فكانت المفاجأة أن زوج صاحبة المكان مصري.

Twitter: @ketab_n

بدا هاني كشخص تقليدي جدا، بداية من موديل الجينز الذي يرتديه، والذي يشبه موديلات الثمانينات، حزامه وحذائه الجلدي التقليدي، والتشيرتات المقلمة ذات الياقة والثلاثة أزرار التي يرتديها دائما في ألوان مختلفة. في لهجته المصرية شعرت بصعيديته المختفية في اللغات الأخرى. كان سماره وعيناه العسليتان يمنحانيإحساسا بالدفء والطمأنينة، لذلك كنت أبتسم كلما نظرت إليه. كان بيننا تواطؤ محبب كرجل وامرأة نبتا من نفس التربة، تواطؤ كانت تشعر ديان نحوه بالغيرة، ولكنها كانت تتراجع عندما ترى مدى احترام كلينا لها وحرصنا على عدم مضايقتها. بعد أيامي الثلاث الأولى في السياحة واللف في الشوارع والمتاحف والمتنزهات، كانت أمامي مهمتان أساسيتان: البحث عن حلا وإعطاؤها الهدية المرسلة من حاتم، وإخبار يوسف بوجودي وترتيب مقابلة معه. بعدها سأعرف هل أعود أم أبقى.. بعدها سوف أقرر ما الذي سوف أفعله في حياتي وسنواتي القادمة! كانت الأسعار غالية للغاية، وخاصة السكن عند ديان. كل مدخراتي لسنوات تضيع في أيام، وشهور من العمل الشاق أدفعها مقابل سقف لعدة أيام. ولكني لم أبال، كنت أقول لو لدي ما يكفيني اليوم وغدا، ولا زال لدي تذكرة عودة إلى مصر، فأنا أستطيع دائما تدبر أمري.

اتصلت بحلا، واتفقنا على المقابلة في أحد المقاهي. تبدو حلا أكثر إشراقا من صورتها التي رأيتها مع حاتم، تتحدث بحماس شديد، تسألني إذا كانت مونتريال قد أعجبتني، فأجيب «نعم»، فتنطلق حلا في الحديث عن حبها لمونتريال، مونتريال المدينة الكوزموبوليتانية،

Twitter: @ketab_n

التي يقسمها شارع «سان لوارن» الذي نجلس على ناصيته مع شارع «برنس آرثر» إلى ثقافتين وعالمين، أحدهما فرنسي والآخر انجليزي. «أنت محظوظة»، تقول لي حلا.. « لقد وصلت في أفضل وقت في العام، فسرعان ما سيبدأ مهرجان موسيقى الجاز، وبعده مهرجان الفنون الأفريقية، وبعده مهرجان «فقط من أجل الضحك»، ومهرجان الأفلام. كل أسبوعين هناك مهرجان حقيقي تدور فعالياته بشكل يومي في وسط المدينة». تفاجأت بنبرة الحماس في صوتها.. كانت على العكس تماما من نبرة الحزن والإحباط في صوت حاتم على قهوة الحرية! سألتها: «يعني بتحبي مونتريال أكتر من القاهرة؟!»

«عارفة يا إيمان، مونتريال هي أكتر مدينة بحبها في العالم، مش عشان هي مونتريال ولا عشان الحاجات اللي قلت لك عليها دي، لا، عشان دي المدينة اللي لقيت فيها نفسي، تعرفي هنا كانت أول مرة أفتح عيني وأسأل نفسي، ها تحبي تشربي ايه؟! أول مرة ادخل محل واشتري فعلا اللبس اللي بيعجبني، مش اللون اللي بيعجب ماما، والمقاس اللي بابا واخويا يوافقوا عليه، واللي يضمن لي حماية من غلاسة الناس في الطريق، هنا اكتشفت ذوقي الحقيقي، وجربت حاجات كتير، حاجات كتير حبيتها، وحاجات كتير ماحبتهاش، وفي النهاية بقيت بعمل بس اللي بأحبه، وعايشة بالظبط زي ما بحب، إنتي كمان لازم تعملي كده»

ابتسمت حلا برضا، فترددت في تذكيرها بحاتم، حكت لي عن حياتها السابقة في البلد العربي الذي كان يعمل به أبواها، الحياة المغلقة بلا أصدقاء أو نشاطات تذكر غير الدراسة، وانتقالها للقاهرة مع أمها

Twitter: @ketab_n

لدخول الجامعة، واصطدامها بمجتمع القاهرة المفتوح المزدحم، والقاسي أحيانا على فتاة برهافتها.. حكت عن تخبطها وارتدائها الحجاب لفترة، وبحثها الدائم عن الحب.. وهنا بدأت في الكلام عن حاتم، ولكن بدا وكأنها تحكي عن قصة انتهت، فلقد كان وكان وكان... حاولت فرملتها قليلا «بس حاتم لسه بيحبك»

«مش عارفة أقولك ايه يا إيمان، بس حاتم ما يفرقش كتير عن أهلي، كل واحد له طريقته في محاولة السيطرة على حياتي والتحكم فيها، يعني عاوزني طول الوقت احكي له أنا هنا بأروح فين وبأعمل ايه؟ وبأكلم مين؟! وانا مااعرفش هو بيعمل ايه في حياته ولا مين أصحابه؟!عاوزني أنا اللي أعمل، أنا اللي أقرب، أنا اللي أتصرف، وما فكرش لحظة واحدة هو المفروض يعمل ايه عشان نبقى سوا، زي أهلي بالظبط بيفكروا هم عاوزين ايه! وانا المفروض اعمله ازاي؟ لكن للأسف ماحدش أبدا فكر أنا محتاجة ايه.. وعاوزة بجد أعمل إيه؟!.. أنا حبيت حاتم فعلا في وقت من الأوقات، لأنه كان من أصدق الناس اللي قابلتهم، كان حقيقي ومش بيلبس ماسكات زي كل اللي حواليا في عيلتي والجامعة، حبيته لأنه كان من النادر انك تلاقي حد صادق في مجتمع زي ده. بس لما جيت هنا، لقيت معظم الناس كده، مش محتاجة أصلا انك تكذبي أو تمثلي، لكن محتاجة أكتر انك تشتغلي وتحققي حاجات ويكون لحياتك هدف حقيقي»

تغيرت رؤية حلا للحب كثيرا. الحرية جعلت شكل الحب الذي تريده مختلفا.إنها تفضل الآن صديقها الغربي النباتي مدمن المذاكرة، والذي يهتم كثيرا لقضايا البيئة.

Twitter: @ketab_n

إنه شخص ثري ومبهر بالنسبة لها، لم يتخط عمره خمسة وعشرين عاما ويحضر للدكتوراه ويتكلم أربع لغات، ويقضي أوقات فراغه في العمل السياسي مع الحزب «الأخضر». كان لقائي مع حلا غريبا، لم أجد فيه الإشارة التي تشجعني على رؤية يوسف عكس ما تصورت، لم أرالحب الذي يقاوم الزمن والبعد، حمستني كثيرا للحياة في مونتريـال، ولكنها تركت وراءها هاجسا بأن لقائي بيوسف ربما يكون محبطًا. ولكني يجب أن أقابله على أي حال، فأنا لم آت كل هذه الرحلة إلا لأفعل ذلك.مقابلتنا سوف يتحدد بعدها كل شيء! ولكنه قراري في النهاية.. قد يكون يوسف سببا رئيسيا في المجئ إلى كندا، ولكنه ليس السبب الوحيد، فلقد كنت أبحث عن طريقة للخروج من مصر، مثل أي إنسان طموح يحلم بالطيران. ربما تؤثر مقابلتهعلى قراري في البقاء، ولكني لن أنتظر أن يتخذه بالنيابة عني. كان في رأسي خطة مرتبة لمحاولة البقاء هنا، إيجاد سكن مناسب وعمل، وتدبير أمر الإقامة.. كان لدي أصدقاء في نيويورك أيضا،ولم أر صعوبة في الذهاب إليهم إذا أقفلت أبوابكندا في وجهي، ولكني أحتاج حقا لوجود يوسف، فلم أشعر بسعادة في حياتي مثلما شعرت وأنا معه.

جلست إلى الكمبيوتر الموضوع في حجرة الجلوس الخاصة بـ«الأوبرج»(*) ، وقررت أن أكتب له رسالة الكترونية. مرت فترة طويلة جدا على آخر رسالة بيننا، لم أعرف ما الذي سأقوله له..! كتبت ومسحت وكتبت ومسحت وأخيرا كتبت...

(*) أوبرج: هو فندق صغير أو بيت به عدة غرف للايجار، ويقدم فقط السرير والإفطار للمسافرين، ولا يوجد به الكثير من الخدمات كالفنادق

Twitter: @ketab_n

«يوسف..

أنا في مونتريـال، وعاوزة أشوفك...

إيمان »

لم أقو على كتابة أي شيء آخر. كنت أريد أن أقول له إني أفتقده، وأن مقابلتنا تكاد تكون مسألة حياة أو موت بالنسبة لي.. ولكني ترددت، بعد أن تذكرت طريقة حلا في الكلام عن حاتم، وقدّرت أنها ربما تكون بالفعل في علاقة جديدة مع صديقها الذي حكت عنه بانبهار، ولم ترد أن تصارحني بها لكي لا تجرح مشاعر حاتم لو عرف بالأمر.قدرت أن يوسف أيضا ربما يكون قد تغير، أو ربما لا يرغب في رؤيتي، أو ربما يكون قد تورط في علاقة جديدة، أو ربما يكون قد أحب أمرأة أخرى. في المساء عندما عدت، وجدت رسالته. كان قلبي يدق بعنف، وكنت خائفة للغاية أن يخذلني، ولكني وجدت كلماته تجري فوق السطور.

«أنا مش مصدق... انتي بتتكلمي جد؟! انتي فين؟ وبتعملي ايه في مونتريـال؟! لازم اشوفك طبعا في اقرب وقت، رقمي ٥١٤٧٧٢١٨٢٨... كلّميني أول ما تشوفي الرسالة، انتي وحشتيني قوي»

«يااه يا يوسف... أخيرا قلتها، أنت كمان وحشتني قوي»

همست، ثم سجلت الرقم في ورقة صغيرة، وأغلقت الكمبيوتر، خرجت لأتمشى وأبحث عن تليفون عمومي لأكلمه منه. لم أحب أن يكون ديان أو هاني في المكان ويشهد أحدهما هذه المكالمة.

Twitter: @ketab_n

على بعد أمتار قليلة وجدته، كان قلبي يدق بعنف عندما سمعت الجرس في الجهة الأخرى عدة مرات، قبل أن يأتيني صوته...

- الو....

صمت

- الو...

- أيوا يا يوسف.. ازيك؟!

- مش ممكن!... انتي هنا فعلا؟... أنا بجد مش مصدق.. وحشتيني يا بنت اللذينة.. انتي فين؟

- انا هنا يا يوسف في مونتريـال، قريبة على وسط البلد

- ايوا ما أنا عارف... فين يعني؟ استنيني... أنا هاجيلك حالا.. هينفع ولا وراكي حاجة؟!

- لا ما واريش أي حاجة... بس...

- بس ايه؟!

- ماكنتش فاكرة اننا هنتقابل بالسرعة دي.. أنا مش مستعدة و...

- مش مستعدة و!... انتي يا بنتي هتفضلي عبيطة... وبعدين مين قالك إني عاوزك تستعدي أنا بحبك كده زي ما انتي.. اديني العنوان

- طيب... عارف بارك سان لوي... اللي قدام مترو شيربروك

Twitter: @ketab_n

- آه عارفها...

- أنا هأقعد استناك هناك، قدامك قد ايه وتوصل...؟

- مسافة السكة... ساعة بالكتير... أنا بجد مش مصدق... انتي وحشتيني قوي

- وانت كمان..

- مالك؟

- مافيش والله.. فرحانة بس أني هأشوفك

- طيب يلا سلام... أنا جايلك حالا...

* * *

بين الفندق الصغير والحديقة عدة دقائق، لا يزال لديّ فرصة الذهاب وتهيئة نفسي للقائه..أحاول التحكم في مشاعري وأعصابي بصعوبة، أشعر أني أريد أن أبكي وأضحك في نفس الوقت، ولا أصدق أنه لم يعد بيني وبينه سوى دقائق معدودة.

بسرعة غيرت الجينز وارتديت فستانا ملونا قصيرا، أطلقت سراح شعري من ذيل الحصان، لأن يوسف يحبه منكوشا، ووضعت مكياجا بسيطا بسرعة وتعطرت، ولم أستطع أن أسيطر على خطواتي السريعة والهرولة التي أصابتني حتى وصلت للحديقة. درت بعيني في المكان، لم يكن قد وصل بعد. جلست على أحد المقاعد في مكان يكشف كل الجوانب التي قد يأتي منها.. كان قلبي يدق بعنف،

Twitter: @ketab_n

وجسدي كله يرتجف.. كيف هو الآن؟ هل تغير؟ هل سيشعر أني تغيرت؟

عرفته قبل أن تتضح ملامحه، من مشيته وقامته المديدة، ابتسم عندما رآني وفتح ذراعيه - حركة أشبه بتلك الحركة التي نشير بها للأطفال لنطلب أن يعطونا حضنا-كان دوما يأتي إليَّ هكذا فاتحا ذراعيه وكأنه يدعوني لحضنه، لم أكن أعرف هل يفعل هذا قاصدا أم بتلقائيته المعهودة. قمت، وسرت كالمسحورة في اتجاهه.. مرة أخريأهرول ولا أستطيع السيطرة على قدميّ، يقترب وتظهر ملامحه أكثر.. ذلك الوجه الذي أعشقه، لون عينيه وسحرها، وابتسامته.. نصل إلى الإشارة معا،أكاد أن أمر على الضوء الأحمر،ولكنه يشير لي توقفي، ويشير للإشارة. يشير بأنه سيحضر هو،لا تعبري.. أقف، وأكاد أقفز على الأرض من الفرح.. مع الضوء الأخضر يقترب، وعندما يصل للرصيف يحضنني بقوة وصمت، قلبه يدق بنفس القوة التي يدق بها قلبي، يتحد جسدانا في ارتعاشة واحدة، يطول الحضن حتى يجذب أنظار المارة. لم أعرف كم دقيقة ظللنا على هذه الحالة، ولكني أردت لها أن تطول للأبد.

أمسك يوسف بذراعيّ وأبعدني قليلا، نظر في عينيّ وقال «أنا لسه مش مصدق.. إنك هنا». لم أتكلم، لم أكن أقوى على البوح بأي كلام، كان هناك حبل من كلام آخر ممتد من عيني لعينيه؟ حديث طويل لم أجرؤ على قطعه، ظلت عيناي متعلقة بعينيه لدقيقة، وصلتني فيها العديد من الرسائل، وأوصلت فيها كل ما تعجز كلماتي عن وصفه.. بعدها انفجرت عيوني بدموع غزيرة لا أدري سببها.

Twitter: @ketab_n

أخذني من يدي، وعاد بي إلى الحديقة، وأجلسني على أحد المقاعد.كنتمستمرة في البكاء كالأطفال، عندما أمسك يوسف بذيل فستاني قائلا بغيظ «بس إيه الفستان الحلو ده؟!» اختلطت ضحكاتي بدموعي، فأنا أعرف صوته عندما يغار، والغيرة هي ملح الحب.. يوسف لا زال يحبني، وأنا أعشقه، وهذا كل شيء.

وكعادته أخرج من جيبه مبتسما شيكولاتتي المفضلة، ولم أكن أعرف أنها تباع في مونتريـالأيضا، ولكني عرفت بعد ذلك أن أي شيء في مصر يمكنني أن أجده في مونتريـال، وبسهولة، ولكن ليس كل ما في مونتريـال يمكن أن أجده في مصر.

تكلمنا كثيرا، وشربنا أكثر من قهوة في أكثر من مكان، وتعشينا سويا. كنا نقضي الوقت وكأنه لا ساعات قادمة، لا مواعيد، ولا أشياء هامة سوى هذه اللحظة.. وهذا ما كان يميز كل لقاءاتنا، والتي كنا نستيقظ منها دائما على فكرة أننا يجب أن نفترق، لأن في الحياة أشياء أخرى غير وجودنا معا. هناك العمل، والأهل، والدراسة، والالتزامات المادية.. كلها أشياء لا تحركنا في اتجاه بعضنا البعض، ولكن في الاتجاه المعاكس.

لم يصدق يوسف أنني قطعت كل هذه المسافة للبحث عنه ورؤيته. شعر أن ما فعلته نادر جدا، ولكني بعدما رأيته شعرت أنني لم أفعل شيئا غريبا. لقاء آخر معه يستحق التضحية، فلم أشعر بسعادة في حياتي مثل تلك التي شعرت بها معه. اتفقنا على أن أنتقل معه حتى يدبر لي شيئا، فلا داعي لأن أدفع تكلفة الفندق اليومية.

Twitter: @ketab_n

كان يتلو عليّ قراراته وكأنه يحكي ليأشياء عادية. وكنت أسمعها بانصياع كامل، وأنفذها دون مناقشة. لم أكن أبدا تلك الفتاة المطيعة في الحقيقة، لطالما كنت أجادل وأشاكس في عملي،أقارن وأعترض وأحاول عرض آرائي.. ولكني لم يكن لديّ ذرة شك في آرائه، وفي أن ما يفعله هو الأفضل دائما لي،على الرغم من كل ما قصه عن حياته هنا، وعن إخفاقاته، وعن المشاكل التي واجهها. كان هو بطلي المثالي، الذي يتغلب على كل شيء، ويهزم بقوته كل المصاعب. كنت أتتبعه بانبهار شديد، فهو سيد المدينة الجديدة. كما أصبحت مونتريال أجمل بقربه.. ازدادت بهاءً وجمالا،إنها الجنة..! تساءلتفي قلبي:إذا كانت فعلا هذه مونتريال بصحبة من أحب، فماذا ستكون الجنة؟!إنني لا أصدق أن هناك ماهو أكثر جمالا من الآن.. من هنا... حالا.

هي نفسها مونتريال التي أهرب منها بعد عدة سنوات، بعد أن ذقت حلاوتها وتجرعت مرارتها الكثيرة، كم تشبه المدن النساء، وكم يشبه الاثنان الحياة نفسها!!

غريب حال الرجال... عندما ذهبت إلى الفندق لأخذ أشيائي، كان وقع المفاجأة غريبا على وجه هاني، بدت عليه للحظات المفاجأة، ونظراته المتحفزة تجاه يوسف، وكأنه ند يدعوه لمعركة. كان يبدو خائفا عليّ، ولا يصدق أكاذيبي حول قرابتي بيوسف، يخشى أن يكون مجرد رجل اصطادني ويريد استغلالي. بعدها بدقائق زال هذا الشعور، وحل محله شعور آخر بالغيرة، فالطريقة التي كان يعاملني بها يوسف شديدة التميز، طريقة كانت تملأ صدور الرجال والنساء بالغيرة، اكتشفت ذلك بعدها. كان الرجال يشعرون من معاملة

Twitter: @ketab_n

يوسف لي بأني امرأة مميزة، ويدفعهم هذا دائما للبحث الدائم ورائي. ما الذي يجده معي ويمنحه كل هذه السعادة؟! لابد وأنني مختلفة عن كل النساء.. وكنت بالفعل امرأة مختلفة، ولكن معه فقط.

أما النساء، فكن يشعرن بالحقد ويتمنين في قلوبهن لو وجدن رجلا يعاملهن بمثل هذا الرقي والتقدير الكبير. والمذهل فعلا هو رد فعل صديقات يوسف السابقات، فهؤلاء كن ينبهرن في مدى التحول في شخصية ذلك العنيد القاسي الحاد الأناني أمام هذه المرأة، التي سيحاول الجميع في الأشهر التالية كشف سرها.

عندما تركت لهاني مفتاح الغرفة وأخذت حقائبي، شعرت وكأني تحررت من العديد من الأشياء.. حياتي السابقة كلها تقريبا. الآن أنا حرة تماما، وأخيرا معه، في بلد على الأقل تحترمنا كبشر وتحترم مشاعرنا.

في هذه الليلة أيضا، فتح لي باب بيته الصغير. وبعد أن درت فيه دورتين بعيون مبهورة، جلست على الكنبة الوثيرة.فوجئت به يجلس على ركبته أمامي، ويمسك كلتي يديّ، ويسألني: «إيمان تتجوزيني؟».. لم أكن أصدق أنه يقولها لي، لم أكن أتوقعها وبهذه السرعة. «بس.. أصل...» هززت رأسي موافقة، وأنا أضحك بعصبية، والدموع تنهمر من عيوني.

راحت السكرة وبدأت الفكرة.. أهله، ما الذي سيقولونه؟! تهديد أخيه لي، هل يصل سلطانهم لهنا؟ وهل لو أصبحت زوجة أخيه بالفعل من الممكن أن يؤذيني؟.

Twitter: @ketab_n

لم أكن أعرف إجابة أي من هذه الأسئلة، ولكني كنت رغم هذا أشعر بالأمان، لأني أخيرا في حضن يوسف.

لم يكن يوسف يعرف لم يحبني كل هذا الحب ويمنع نفسه عني وهو في أشد حالات حبه ورغبته فيّ! كان بداخله هاجس دائم، يخبره أني الشيء الوحيد الجميل والنظيف بحياته، ولا يجب أن يشوهه.. كما بدأ صحيحا ونظيفا، يجب أن ينتهي كذلك. كان يريدني بشدة، لدرجة قد تكون مؤلمة، ولكنه لا يريد أن يقترب مني أو يغرق فيّ أو يمتزج جسده بجسدي ويلجني، دون أن أكون زوجته.

نمت في حضنه كطفلة، وفي الصباح أخذني إلى المركز الإسلامي وطلب عقد قراننا. عدنا وقمنا بتحضير الغداء سويا، وبعدها لاحظ خجلي كعروس، وكأن ما سيحدث بيننا لم يدر في خيالنا آلاف المرات، وكأني لم أنم في حضنه قبل ذلك وأتعرى أمامه.. كانت هذه المرة مختلفة.

وكأنه لم يكن يعرف جسدي ويكتشفه لأول مرة، تحول يوسف لمراهق يستكشف الجنس بكل قلق وتوتر. كان يخاف أن يؤلمني، ويحاول ألا يتسرع في أي خطوة.. شعر بارتباكي، فتركني قليلا.. أخبرني أنه لا يريد أن يقتحمني، بل على العكس تماما، يريد مني أن أفتح له كل أبوابي وأستسلم تماما، أفعل ما أشعر به وما أريده في قلبي دون تردد.. تكلمنا كثيرا، وشاهدنا فيلما رومانسيا، ثم بدأ في تقبيلي ومداعبتي. تركت له نفسي على سجيتها، وكأننا جسد واحد لا اثنين، امتزجنا لأول مرة، كنا نرتفع سويا، وكأننا اندفاع مياه في نافورة،

Twitter: @ketab_n

ونهبط سويا كشلال، وكان انسجامنا لهذا الحد مفاجأة لنا.

حرارة أجسادنا سويا، طعم القبلة، رائحتنا معا، تفاصيل ذلك السحر كله الذي يجمعنا، وكأننا جسدان محفوران في نفس القالب.. هي ليست سوى ضلع اقتلع من صدره يوما، وأخيرا قد عاد لمكانه.

كان يقول ليإن الوصول معي هو الجنة، وأنني حوريته، وكل العذارى اللائي وعد بهم الله عبيده المخلصين. فهو يشعر بعذريتي كل يوم، ويرى في عيني براءة لم يرها في كل النساء اللاتي قابلهن قبلي.

وأنا لم أكن أعرف كيف سقطت من ذاكرتي كل التجارب التي مررت بها في غيابه، كيف تلاشت صور كل الرجال، لم أعرف لما كنت أشعر باحتياج قوي إليه، وكأن بداخلي مركز جاذبية الكرة الأرضية، أريد أن أبتلعه تماما وأجذبه لي لآخر مدى..أحتويه وأغلق عليه جسدي، فيصبح داخلي تماما.. رجلي وجنيني في الوقت نفسه، أحلامي وأفكاري، مشاعري وغذائي حين أجوع.. لأول مرة معه أشعر بمعنى الشبع، أن أكون كاملة ومكتفية تماما، مروية وممتلئة ومشبعة بكل ما أحتاج..فقط وهو هنا... داخلي.

أيام كثيرة مرت علينا سويا، لم نشعربها من فرط جمالها. لم يكن هناك أي شيء تقليدي في حكايتنا، لم نفكر في مسكن أو فرش أو تأمين لمستقبل، ومع ذلك كان كل شيء نحتاجه موجودا بوجود الآخر.

في تلك الفترة، حكى لي يوسف كل ما مر به في مصر وكندا. كان يعمل بأحد البنوك في الصباح، وكان من خلال عمله يسهل للعرب قادرين أو غير قادرين الحصول على قروض لشراء بيوت أو سيارات

Twitter: @ketab_n

أو فتح شركات، مقابل عمولة خفية يدفعها له الشخص الذي يواجه مشكلة مع أوراقه أو وضعه المالي. ومع آخرين كان يدبر أمور العرب الذين لا يحملون تصريحات بالعمل أو رقم ضمان اجتماعي، بأن يوفر لهم واحدا أو يجد لهم عملا تحت الطاولة. كانت علاقاته كثيرة ومتشعبة وقوية، وكان السبب في هذا طبعا نفوذ أبيه بالداخل والخارج،ولكن ليس هذا فقط، فالأهم هو ترويجه للمخدرات وتعاطيه لها، فالعلاقات التي تنشأ حول المخدرات هي من أكثر العلاقات قوة وسرية، وخاصة في الدول الغربية.

ذات ليلة، فوجئت به يدخل مهرولا إلى الشقة،خلع ملابسه بسرعة رهيبة واندس بجانبي في الفراش. وفي الخارج، كان هناك أربع ضباط يقتحمون باب المنزل، لأجدهم فوق رؤوسنا تماما. طلبوا منه الوقوف، وعندما وقف وأبدى تذمرا وبدأ في الصراخ، صرعوه بعصا كهربية بيد أحدهم، وجرجروه على سيارة الشرطة.

لم أفهم ما الذي يحدث، ولكني ارتديت ملابسي وبسرعة وقفت أستجدي أي تاكسي ليأخذني وراءهم، ولكني فشلت تماما في إيقاف أي سيارة واللحاق به. عدت إلى الشقة، واستغرقت في بكاء طويل. لم أكن أعرف بمن يجب أن أتصل، لا أعرف ما الذي يجب عمله في هذه الحالة، فعلاقتي بأبي يوسف وأخيه سيئة للغاية، ولقد قررنا إخفاء علاقتنا عنهم وعدم إخبارهم بحضوري إلى مونتريال من الأصل. تليفونه أيضا مغلق بكلمة سر لا أعرفها، ولم احاول أبدا معرفتها أو التفتيش في أشيائه.. كان يجب أن يقول لي ما الذي أفعله في حالة مثل هذه، كان يجب أن يترك لي رقما أو شخصا للطوارئ. كدت أن أنهار

Twitter: @ketab_n

وأنا أنتظره، وكل السيناريوهات المرعبة تدور في رأسي، وأسوأها على الإطلاق...ألا أرى يوسف مرة أخرى.

في مساء اليوم التالي، دخل يوسف من الباب! جريت نحوه واحتضنته، لم أكن أعرف ما الذي يمكن أن أقوله، لذلك ظللت صامتة تماما. شجعه صمتي على الحكي، فحكى لي عن عودته من الكازينو على الموتوسيكل السريع لأحد أصدقائه كان «مأفور»(*) بعد أن شرب الكثير من الخمر وتعاطى جرعة مخدر، وعند أحد التقاطعات ظهرت سيارة الشرطة وبدأت في تتبعه. كانوا يريدون إيقافه بسبب السرعة، ولكنه لم يستجب. شيء في رأسه حرضه على التحدي والإسراع أكثر وأكثر.. دار في شوارع كثيرة، وهرب منهم ومن سيارات أخرى تلقت الإشارة بتتبعه.. أكثر من ساعة لعب فيها يوسف بأعصابهم تماما، ولعب معهم لعبة القط والفأر، وفي النهاية وصل للبيت واندس في الفراش.. ولكنهم تتبعوه حتى الفراش، وحدث ما رأيته بعيني.

بعدها اقتادوه إلى أحد الأقسام، بعد مرور عدة ساعات لم يكن اختبار الكحول إيجابيا، فقد تطاير كل الكحول من دمه، واستطاع يوسفتأجيل إعطائهم عينة من بوله أو دمه عدة ساعات،حتى يفشل اختبارهم للمخدرات. تظل مشكلة السرعة، التي لم يستطيعوا إثباتها عليه، فقد أخذوه من سريره وليس من الشارع، ومن الصعب إثبات أنه نفس الشخص الذي يدعون خرقه للقانون، لأنه لم يكن يرتدي نفس الملابس، والموتوسيكل غير مسجل باسمه في الأوراق.

(*) تعاطي أنواع مختلفة من المخدرات مع شرب الكحول

Twitter: @ketab_n

كانت القضية مهلهلة تماما. والأكثر من هذا، أن يوسف هددهم بمقاضاتهم وطلب تعويض كبير لما فعلوه به، وبطريقتهم في القبض عليه بالصعق الكهربائي، فأبقوا عليه عدة ساعات أخرى، بحثوا فيها بتاريخه، وأخذوه إلى أحد الغرف لمقابلة أحد موظفي المباحث، الذي فاجأ يوسف بكل تلك المعلومات التي يعرفها عنه، منذ تاريخ ولادته على الأراضي الكندية، وحتى عاد إليها شابا.. كل الفتيات التي عاش معهن، والمخدرات التي يتعاطاها، المصائب التي قام بها سابقا، وكل الأعمال غير المشروعة التي لا يجدون إثباتا لها، وإن كانوا يعرفون جيداأنها تتم من خلاله.

كان موقفا غريبا جدا، فبعد كل هذه الجرائم التي يعرفها عنه رجل المباحث، أمر بإطلاق سراحه بعد أن حذره قائلا «نحن نراقبك ولن نتركك في المرة القادمة».

كنت أشعر أن يوسف يحكي لي فيلما سينمائيا من إنتاج هوليوود، لا مشهد حقيقي من الحياة بطله هو الإنسان الوحيد الذي أحبه، وربما لو لم أكن شاهدت بنفسي الضباط يصعقونه بالكهرباء ويقتادونه، لم أكن لأصدق أي حرف من روايته، ولاعتبرتها مجرد حكاية خيالية لجذب الانتباه والتباهي بذكائه وقوته.. ولكن الواقع غلب الخيال.

ماذا أفعل؟! لم أكن أبدا تلك المرأة التي قد تعتاد الإجرام أو ترى في خرق القوانين إثارة ما. في قلبي تقبع أم وطفلة فيآن واحد.. الأولى ناقدة لا تسمح بالخطأ، والأخرى تخاف منه. كيف أتقبل ما يفعله يوسف ببساطة، بل وأعتبره بطولة ما أحيانا؟ يوسف هو ابني، ولكن

Twitter: @ketab_n

لا أستطيع تقويمه.. يوسف هو أبي وأنا طفلته التي لا تستطيع أن تكرهه عندما يخطئ.

علاقتي بيوسف أكبر من أن تنكسر بسبب أخطائه. يقولون إن الأنثى تلد وهي مستيقظة؛ ولما خلقت حواء من ضلع آدم كان نائما. يُقال إن الرجل حين يتألم، يكره.. بعكس المرأة، التي حين تتألم تزداد عاطفة وحبا! ألهذاأحببت يوسف كل هذا الحب؟! هل هذا هو السر؟

بدأت أطلب من يوسف أن يعرفني بشخص يثق فيه، أستطيع أن ألجأ له في طورائ كهذه ليساعدني. وبدأت أشعر بأهمية اكتشاف المجتمع الذي أحيا به، والتعلم؛ فلا يمكنني الاعتماد على يوسف طوال الوقت. لذلك اشتركت في كورسات للغة الفرنسية، ومع دخول أول شتاء بدأت في البحث عن كلية للدراسة، بهدف تغيير تأشيرة دخولي إلى كندا من زائرة إلى طالبة. ولم تبد لي الأمور سهلة كما تصورت، ولكن يوسف كان يساعدني كثيرا، فاتفق لي مع محامٍ ليجهز لي كل الأوراق، ولم يستسهل ويعطني أوراقا مزورة كالآخرين، بل أصر أن يكون كل شيء قانونيا وصحيحا. اشترى لي تأمينا صحيا خاصا، واستخرج لي كارت ائتمان (فيزا) تابع لحسابه، يسدد من خلاله مصروفاتي. كنت أشعر معه دوما أنني ملكة، أسير بجانبه وكلي فخر، وكانت مشاعري هذه تمحو كل خوفي وقلقي من إدمانه للمخدرات وأعماله غير القانونية. بدأت في تعلم الفرنسية، ولم تكن أبدا لغة سهلة. خلال شهور الصيف، عرفني يوسف على المدينة، لم نترك ميدانا إلا وتبادلنا فيه القُبل، ولو كنا نستطيع تبادل الحب أيضا لفعلناها.

Twitter: @ketab_n

مع بداية الشتاء، ذهب معي واشترى لي معطفا باهظ الثمن، ربما يكون أغلى شيء امتلكته، واشترى لي «بوت»(*) جلدي يليق بشتاء صعب وبارد. في ليالي الشتاء، كنا نرتدي ملابسنا جيدا في طبقات، ونخرج أيضا. قضينا ليلة جميلة في الميناء القديمة، مهرجان يسمى «نوي بلانش»(**)، في وسط الثليج استمتعنا بالرقص مع الجميع، كنا نجتمع في مجموعات أمام المدافئ الموضوعة خصيصا لهذا الغرض، وكنت أرقص وهو يحتضن ظهري، وعندما نبرد جدا نتبادل القبل الساخنة، وندفئ بعضنا البعض. في نشوة الحب، بدأت تبادل السجائر معه، وأحيانا كانت تلك السجائر محشوة، لا أعرف بما، ولكني أظنها الماريجوانا، فأنا لم أسأله أبدا. أيضا بدأت في الشرب قليلا، كؤوس من الفودكا أو كوكتيل في بار أو كأس واين قبل العشاء.

كانت حياتي وشخصيتي تتغير مع الوقت دون أن أشعر. كنت -ولأول مرة- أشعر أن الحياة تبتسم لي، وأنني أملك كل ما أريده.. ولكن كان هناك شيء بداخلي يصرخ دائما «لا تأمني لضربات القدر.. لا شيء يدوم»، ولكني لم أتصور أن تأتيني الضربة بهذه السرعة، وفي ذلك الوقت تحديدا.

بعد ليلة حب شتوية، حيث تتحول حرارة جسدينا إلى بخار على النوافذ، بعد أن شربنا سويا زجاجة خمر معتقة، وتسلينا ببعض الفاكهة والمكسرات، وجلسنا عاريين في السرير، نتحدث في أي شيء وكل شيء،كعادتنا منذ تقابلنا.

(*) حذاء شتوي برقبة طويلة

(**) كلمة فرنسية تعني الليلة البيضاء، وهي تعبير عن قضاء الليل مستيقظا

Twitter: @ketab_n

استغرقنا في نوم عميق، في الصباح ارتدينا ملابسنا واتفقنا أن يوصلني يوسف للكورس قبل أن يذهب لعمله بالبنك. كنا على الطريق السريع الممتلئ بالثلج على جانبيه، وفجأة ظهرت شاحنة عملاقة قادمة من الاتجاه المعاكس، لتنحرف تماما عن طريقها، وتدخل لطريقنا، وتصطدم بسيارتنا من ناحية يوسف.

ظلام

يملأ السماء، ودموع تملأ عينيّ، وصداع رهيب..لقد ظللت على جلستي هذهساعات طويلة، أتابع فيض الذكريات. ربما يجب أن آخذ مسكنًا للصداع، وأحاول أن أنام وأرتاح قليلا.أضبط المنبه على العاشرة، وأغلق الستائر.. يجب أن أنام لكي أستطيع القيادة في اليوم التالي إلى «كالجاري» فريزر كندا.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ريجينا

لم آخذ قهوتي أو إفطاري في الصباح، صحوت في آخر لحظة، وجمعت أشيائي بسرعة، وتركت الغرفة. استسلمت للطريق، وضعت بعض موسيقى الجاز، وقررت القيادة إلى الحد الذي أستطيعه. كنت قد بدأت أمل الطريق، وتوقفت عن حساب الوقت، ما قد مر وما يتبقى من الطريق! لم تعد تعنيني الرحلة كما في البداية، بل اشتقت الوصول، وإن كنت لا أعرف ما الذي سأصل إليه في النهاية!

فيض الذكريات جلب لي الكثير من الوجع. الموسيقى والطريق أعادا الهدوء إلى روحي؛ ولكن باقترابي من مدينة تسمى ريجينا، شعرت أنني لا أستطيع الاستمرار، وأريد التوقف قليلا. خرجت من ترانس كندا إلى المدينة.. لم تكن مدينة صغيرة كما تخيلت، وكان من السهل إيجاد مقهى.

هكذا ببساطة.. لا أعرف بقية تفاصيل ذلك الحادث، الذي أخذ مني أغلى شيء بحياتي، ربما لو أخذ حياتي نفسها لكان أفضل كثيرا.

Twitter: @ketab_n

لا أعرف ما حدث بعدها، ولكني سقطت في غيبوبة طويلة، وعدة عمليات جراحية، امتدت لشهر تقريبا، وحين أفقت أخبرني صديق يوسف بوفاته في الحادث، وأن والده واخاه أمير قد حضرا فور سماعهما بالخبر، واستلما متعلقاته وطلبا شحن جثمانه إلى مصر، وأنهما علما بوجودي وبما حدث لي، ولكنهما لم يهتما كثيرا لأمري، فقد صفوا كل أشياء يوسف ومتعلقاته، حتى شقته وسيارته، وتركوا ملابسي وأشياء تخصني في الحقيبتين مع صديقه هذا. قالإن التأمين الذي اشتراه يوسف لي هو الذي يغطي تكاليف إقامتي بالمستشفى الآن، وكل العمليات التي أجريت لي. لم أكن أصدق أن كل شيء ضاع في ضربة واحدة. كان العلاج الذي أتلقاه يشعرني بعدم التوازن، ولم يصدق أحد نجاتي من هذا الحادث، بل ووقوفي على قدميّ مرة أخرى.

عندما خرجت من المستشفى وذهبت إلى شقة هذا الصديق لأتفقد أشيائي، وجدت كل شيء يخصني في الحقيبتين، كل شيء ما عدا شيئا واحدا، وثيقة زواجي من يوسف.

مكانها داخل جواز سفري وبين أوراقي الأخرى، وجدت رسالة قصيرة من أمير، يطلب مني أن أنسى عائلتهم تماما، وألا أفكر أبدا في الاتصال بهم أو التواصل معهم لأي سبب. وكان هناك شيك باسمي.. بمبلغ كبير هو، مقابل خروجي التام من حياتهم.

كنت أفهم تماما ما يقصده أمير،إنه لا يريدني أن اتعامل معه كزوجة ليوسف أو أطالب بميراثي عنه. على أي حال وثيقة زواجنا،

Twitter: @ketab_n

ليست سوى ورقة، فهي غير موثقة عند الحكومة الكندية أو المصرية، ولن يعترفا بها، وسيطعنون عليها بالتزوير بسهولة. هي ليست سوى ورقة، وحتى تلك الورقة لا أملكها في الوقت الحالي.

ساعدني صديق يوسف في البحث عن شقة صغيرة،ووجدت واحدة، ونقلت إليها أشيائي، وأخيرا جلست وحدي بين أربع جدران. كنت أشعر وكأنني جندي قد عاد توا من حرب خسرها، تركيزي كان أقل كثيرا بسبب الأدوية التي داومت على تعاطيها. كنت أدير نظري في المكان غير مصدقة كيف يمكن أن تتغير كل الحياة في شهر هكذا. بعدها تغيرت الأشياء بداخلي،إحساسي بها تغير، رغبتي فيها تغيرت..ربما تكون تأثيرات الهجرة، وربما هي نتيجة الفقد، فقدت كل ما قد أحببت شيئا تلو الآخر، فالموسيقى لم تعد تطرب، والأفلام لم تعد تستهويني كما في السابق، ولم يعد يعنيني كثيرا اهتمام البشر.. ومع ذلك أخاف من فقدانهم تماما ومن الوحدة.. ومع ذلك حين أكون في وسطهم أتمنى العزلة،وأود لو أكون وحدي تماما.

مع دخول الشتاء، كان الصقيع يتسلل إلى داخلي ويذبح عظامي كسكين حاد.لم تعد مقاومتي كما كانت، ولذلك فضلت البقاء وحدي في البيت.استحليت الغياب، ولم أعد أريد الظهور مرة أخرى.ورغم شعوري بالوحدة، لكن شيئابداخلي جعلني أنفر بعد فترة قصيرة من كل العلاقات، لم أعد أهتم كثيرا بسماع من حولي، ولا أتركفرصة للحديث أو التواصل، أدعي عدم قدرتي على التواصل مع العالم وعدم معرفة اللغة، وأكتفي بالإشارة لعجزي والانسحاب.

Twitter: @ketab_n

رحيل يوسف كان تغييرا جذريا في حياتي.. لم يكن أبدا كرحيل أمي،أو رحيلي عن البيت، أو رحيلي عن مصر.. رحيل يوسف غيَّر طعم الأكل في فمي، غيَّر الألوان، غيَّر كل إحساسي بالعالم.. كنت أشعر بوطأة الظلم، وكنت أسأل الله كثيرا: لماذا؟.. ولا أجد أي رد.

Twitter: @ketab_n

كالجاري

وصلت أخيرا إلى كالجاري، أو فريزر كندا كما يسمونها، فهي من أبرد المناطق في كندا، لأنها تمر بجبال الروكيز الشهيرة. قد تهبط الحرارةفيها إلى ٤٠ درجة تحت الصفر شتاءً، والثلج فيها لا ينقطع طوال السنة، لذلك لم أستغرب أن رأيت الثلج يغطي المنطقة في ذلك الوقت. سيارتي مكيفة، لذلك لم أشعر بالبرد، ولكني احتجت أن أخرج جاكيت ثقيل، بمجرد خروجي منها في محطة البنزين. البنزين هنا أرخص، وحتى الضرائب أقل، وذلك لأن ألبرتا هي أغنى المقاطعات الكندية، وبها العديد من شركات النفط.

الطبيعة هنا خلابة، والطريق يحرض على الاستمرار فيه، ولكني أريد الراحة. بدأت البحث عن فندق مناسب.. كالجاري مدينة كبيرة، فيها شعوب من جميع أنحاء العالم، لأن أكبر شركات النفط وأكبر الشركات الاستشارية الهندسية في العالم تتواجد فيها؟ قرأت

Twitter: @ketab_n

ذات مرة أنه مخطط لها أن تكون «هيوستن»(*) جديدة.

تركت سيارتي قليلا، وقررت التسكع في وسط المدينة. لاحظت أيضا كثرة الوجوه العربية والمهاجرين في الشوارع والمولات، على العكس مما رأيت في كل المدن الكندية الصغيرة التي مررت بها، والتي يكثر فيها البيض والسكان الأصليين. دخلت مطعماً هندياً، وتناولت وجبة تشبه كثيرا الأكل العربي. الآن بدأت أشعر كم هي مرهقة هذه الرحلة! وجدت فندقا صغيرًا، ومن حسن الحظ وجدت فيه غرفة؛ حجزتها وعدت لإحضار سيارتي وأشيائي.

بمجرد أن دخلت الغرفة، ملأت البانيو ونقعت نفسي فيه. استخدمت ماء ساخنا أكثر من اللازم، وأغلقت كل نوافذ الهواء.«الجو بارد هنا» قلت لنفسي، وعدت مرة أخرى لذكرياتي...

حادث واكتئاب من هذا النوع لم أكن لأخرج منه على قدمي مرة أخرى. ولكن عناية الله، والنظام، والاهتمام في المستشفى الكندي، هو ما ساعدني كثيرا على التعافي.الماضي الذي عشته قبلا وقسوته كان قد قواني بشكل لم أتخيله، الحياة أقوى من الموت، ولذلك فهي تنتصر رغم كل شيء.

الغريب، أن يوسف كان قد حكى لي ما جرى قبل سفره إلى كندا.. حادث السيارة الذي قتل فيه عن طريق الخطأ أحد بوابي العمارات.

كان يحكي بألم شديد، بعد أن شرب قليلا.. وصف لي مدى حزنه

(*) مدينة أمريكية، وتعتبر أكبر مدن ولاية تكساس، ورابع أكبر مدن الولايات المتحدة الأمريكية، وتعرف جيدا بإنتاج النفط والأبحاث العلمية الخاصة بالفضاء.

Twitter: @ketab_n

لقتله هذا الرجل، الذي كان يعول أسرة كبيرة، وتمنى لو كان في مصر وأمكنه تعويض هذه العائلة المنكوبة، وأخبرني أنه تحدث إلى أمير، الذي نهره بشدة وأخبره أن المعادي كلها تتحدث عن الحادث ويعرفون من قام به، بسبب كلام أمين الشرطة الذي شاهده يومها. صحيح أن أحدا لن يستطيع إثبات هذا، ولكن مساعدة أسرة الضحية قد يكون أكبر دليل على ذلك، وسوف يكون شديد الضرر بسمعة أبيه، الذي يستعد للانتخابات المقبلة.

سألته وقتها أن يمنحني اسم الرجل وعنوانه، وسأرسل أنا لأهله مساعدة من خلال أصدقاء أعرفهم، يعملون مع إحدى الجمعيات الخيرية. ابتسم وارتاح للفكرة، وصمت وكأنه يفكر فيها.. بعدها نظر إلى وجهي وكأنه ينتظر رد فعل ما يقوله، ثم همس بصوت مختنق «أنا حاسسان أنا كمان هموت في حادثة عربية». أزعجتني جدا نبوءته هذه، خاصة وأنا أعرف مدى تهوره، وكان كلانا يؤمن بأن من قتل يقتل، وكما يدين يدان. كنت أخشى فقدانه، وكنت أتخيل دائما بأنني سأفقده بـ «أوفر دوز»، ولكن هذا لم يحدث.. حدث ما أخبره به قلبه الشفاف. قالت لي نهى: «قد نستدعي الموت، نطلبه ويستجاب لنا، وبالطريقة التي نحددها. ربما كان يرى في موته، وبهذه الطريقة، طريقته الوحيدة للخلاص من الذنب، وقد نالها وكما أراد تماما، ربنا يغفر له ويرحمه» فكرة لم تكن لتخطر على بالي، ولكنها جعلتني أتمنى الموت كثيرا، موتا سريعا خاطفا، لا يسبقه ألم أو عذاب أو شيخوخة، موتا مفاجئا، وأنا لا زلت واقفة على قدمي، ولا يأتي أبدا ذلك اليوم الذي أحتاج فيه إلى أحد.. ولكن هذا لم يحدث حتى الآن!

Twitter: @ketab_n

خرجت من المستشفى بقدم ثالثة، عكاز أتوكأ عليه، فكل إصاباتي الخطيرة كانت بساقي اليسرى. ربطي للحزام والوسائد الهوائية أنقذا حياتي وجسدي بالفعل. الجزء الوحيد الذي طاله الأذى كان قدمي، وبعض الخدوش والألم نتيجة الاصطدام القوي والزجاج، وضربة الوسادة عند انفتاحها المفاجئ.

بعد عدة عمليات وعلاج طبيعي، عدت للوقوف والمشي مرة أخرى. كنت أبقى بالبيت فترات طويلة دون خروج، أشتري أشيائي بالتليفون. كنت أحاول ألا أتحرك كثيرا، وخاصة في الشتاء الكندي بقلبه الذي لا يرحم.

في يوم، اضطررت للخروج لقضاء بعض المصالح. ذهبت إلى وسط البلد، وعند عودتي كان يجب أن آخذ المترو ومن ثم أتوبيس. كان الجو شديد البرودة، أكثر من أي وقت آخر مر عليّ هنا، وخاصة مع هشاشة جسدي بعد الحادث. كان الكشك الزجاجي الخاص بانتظار الأتوبيس ممتلئا بالبشر، وكان هناك طابور طويل ممتد لعدة أمتار على الرصيف في انتظار الأتوبيس، الذي ظهر في جدوله أنه يأتي مرة كل ٢٥ دقيقة، ويبدو أنه تأخر بسبب تساقط الثلوج. لم يكن بيدي سوى الانتظار والتجمد.. وأخيرا وصل الأتوبيس وبدأ في تحميل الناس، ولكنه عندما امتلأ أغلق بابه وذهب، قبل أن يأخذني معه. كدت أن أبكي، وشعرت أن بيني وبين الانهيار دقائق بسيطة. البرد يجعلني عاجزة عن التفكير أحيانا، يشتتني تماما، ويستولي على كل مراكز إحساسي، فلا يمكنني مثلا أن أشعر بالجوع أو العطش أو أي إحساس آخر وأنا أقاوم هذا الألم الذي يسببه البرد، فهو عدو لا

Twitter: @ketab_n

تعرف أن كان يقاتلك من الداخل أم من الخارج، يضربك بقوة دون أن تعرف من أين تأتيك الضربة، ولكنك فقط تشعر بالألم.

تخليت عن الطابور، الذي أصبحت في أوله بالفعل ولكن بعد رحيل الأتوبيس، لأني غير مستعدة للانتظار ٢٥ دقيقة أخرى. رجعت أحتمي بمدخل المترو، بحثت في تليفوني عن شخص يساعدني، ولم أجد سوى«هاني».

لم يكن قد رآني منذ يومنا الأخير في بداية وجودي في مونتريـال، وكنت قد اتصلت به أكثر من مرة في أوقات سابقة للاطمئنان عليه وعلى ديان، ولإعطائه رقمي. عادة تعلمتها من عملي بالعلاقات العامة، حيث إبقاء قنوات الاتصال مفتوحة مع الآخرين.. لا أحد يعرف متى سنحتاج إليهم. صوتي المنهار جعله يترك ما بيده ويأتي في دقائق معدودة، قضيتها في مدخل المترو أحاول تدفئة نفسي، يلفحني تيار الهواء الشديد البرودة، المندفع من الأبوابعند دخول الناس وخروجهم، ولا أستطيع الدخول أكثر في المترو، لكي لا تنقطع شبكة الموبايل وأفقد الاتصال بهاني عندما يصل.

كنت قد اخترت بيتا صغيرا بعيدا عن المدينة، لأن الإيجارات رخيصة. لذلك، كنت آخذ الأتوبيس لمدة طويلة –حوالي ٤٥ دقيقة– ثم المترو، لأصل إلى وسط المدينة. هذه المحطة كانت معزولة جدا عن العالم، لا مقاهي حولها أو محلات للاحتماء بدفئها، أو هكذا ظننت عندما نظرت إلى محيطها. في الحقيقة، أن الغريب فعلا أعمى ولو كان بصيرا.

Twitter: @ketab_n

فشارع واحد من المحطة في الأربع اتجاهات، كان كفيلا بأن يجعلني أكتشف مدينة أخرى داخل المدينة، ومحلات ومقاهي وأسواقًا. ولكن التجربة معلم قاسي، يعطيك الامتحان وبعدها تبدأ في تعلم الدرس.

حين وصل هاني وأخبرني أنه بالخارج، كنت قد انهرت تماما، لأنني أكتشفت أن إحساس العوز والحاجة والتقيد بالجميل الذي قام به من أجلي قد يكون أصعب على نفسي من البرد وألمه. فكرت لما لم آخذ تاكسيا، ولكني توقعت أن هذا سيكلفني مبلغا كبيرا جدا مع بعد المسافة ووجود الثلوج،لذلك لم أجرؤ على الاتصال بتاكسي. وربما هي بقايا حرصي الدائم على الفلوس و«التاكسو فوبيا» لكثرة ما هددني الفقر والعوز.

ألقيت التحية، وارتميت على كرسي السيارة، ولم أستطع أن أنطق بكلمة. كان جسدي كله يرتجف، ويكاد قلبي أن تسمع دقاته من الانفعال. لم يتركني هاني يومها، ساعدني في الصعود للبيت، خلع عني طاقيتي والكوفية والمعطف الثقيل، وكانت عيناه تتسعان كلما رأى آثار الحادث على وجهي ورقبتي وصدري، فهمس بفزع «إيه اللي حصل لك؟!»

ارتميت على الكنبة واستغرقت في بكاء طويل.. بكاء قوي وحاد. كانت دموعي تسيل بلا توقف، وكل ذرة في جسدي ترتجف. لا أتذكر أنني بكيت في حياتي بهذه القوة وهذا الوجع.

أخذني هاني في حضنه، وربت على جسدي محاولا تهدئتي.

Twitter: @ketab_n

كنت لا أستطيع التوقف عن البكاء، الذي تحول لنشيج وآهات متقطعة، وشهقات لا أعرف من أين تخرج! كان هناك الكثير من الوجع والقهر بداخلي، كنت غاضبة جدا من هذا العالم، الذي أخذ مني كل ما أحببت، ورماني بهذا البرد لأعاني كل هذه الآلام والعجز الجسدي التام أمامه، حتى أحتاج لشخص آخر.

كان هاني يرفع الشعر عن وجهي، ويجفف دموعي، ويسألني ماذا حدث؟! هل تعرضت لحادث ما؟ ما هذه الجروح المنتشرة في جسدي، ولماذا لم أتصل به واطلب المساعدة في وقت سابق؟.. ولم أكن قادرة على الإجابة على كل هذه الأسئلة سوى بالبكاء.

عندما بدأت أدفأ قليلا وأهدأ، قام هاني لصنع كوبين من الشاي. لم يكن من الصعب أن يكتشف أماكن الأشياء في مطبخي الصغير. بعد أن أحضرهما، جلس أمامي، فحكيت له ماحدث خلال الشهور السابقة.. زواجي، موت يوسف، العمليات والعلاج الذي مررت به. بدا هاني مشفقا جدا وحنونا للغاية، كان مختلفا تماما عن الانطباع الذي أخذته عنه في البداية، ظل معي حتى تأكد أنني أصبحت أفضل، ثم أخبرني أنه سيتصل بي يوميا، وأمرني -وكأني طفلة- بألا أخرج من البيت قبل أن أقول له، لكي يأتي ويوصلني. ثم ذهب، بعد أن وعد بأن يكون قريبا، ويكون أهلي هنا.

كمحاولة لمساعدتي، عرفني هاني على محامٍ مصري غريب الأطوار، عرض عليّ رفع قضية تعويض على «السيتي»، بدعوى أن عدم تنظيفهم للطريق كان السبب في الحادث الذي حدث لي.

Twitter: @ketab_n

كان مبلغ التعويض الذي سيتم طلبه كبيرا، ولا توجد أتعاب، فقط نسبة لصالح المحامي في حال ربح القضية. كل المطلوب مني هو الأوراق والتقارير الطبية، والمثول أمام المحكمة معه عندما يستدعي الأمر. في طريق العودة، وبعد أن أخبرته أني سأفكر في الأمر، أخبرني هاني بأن هذا الرجل يقول على نفسه «العمدة»، ويحاول حل معظم مشاكلهم على الطريقة المصرية «الفهلوة»، وأنه يقوم بتوفير الشغل «تحت الترابيزة» لمن يريد، ويقدم ما يسمى بـ«اللاندينج سيرفيس»، وهي عملية نصب على الحكومة الكندية وادعاء وجود شخص بكندا، وهو موجود في نفس الوقت في بلد آخر للعمل أو لأي سبب، وذلك من خلال استخدام الكريديت كارد الخاصة به، واستخراج تقارير طبية مزورة، أو الحصول على إعانات شهرية لأطفاله، تدخل كلها جيب هذا«العمدة»، في مقابل أن يثبت وجود الشخص في كندا للمدة القانونية المقررة، وهي ٣ سنوات، قبل بدأ تقديمه للحصول على الجنسية وجواز السفر الكندي. ولكني اكتشفت بعدها أن هذه المعاملات غير القانونية لا تتم فقط بين المصريين، ولكن في الجاليات الأخرى من كل الدول، فالفساد في كل مكان، والخير والشر وجهان دائمان للحياة، ولكن الفرق هنا إنهم يراجعون دائما أخطاءهم، ولذلك يتم تغيير قوانين الهجرة وتعديلها لمواجهة اختراقات القانون هذه، مما جعل الهجرة صعبة جدا على العديد من الناس، وأصبحت حياة المهاجرين أصعب بسبب تصرفات البعض منهم.

لم أرتح للرجل أو للموضوع، وقررت أنني يجب أن أقف مرة أخرى على قدمي وأدرس وأعمل، لأني نفسيا لا أستطيع الحياة على

Twitter: @ketab_n

إعانات البطالة والمساعدات الاجتماعية، كالعديد من المهاجرين هنا.

بالفعل كان هاني يتصل بي كل يوم في الصباح، ويتحدث معي قليلا، بل إنه أحيانا كان يتصل أكثر من مرة في اليوم، وكان يأتي لزيارتي. وتعودت على وجوده في حياتي.. لم يكن هاني بالنسبة لي سوى «بلدياتي» كما يقولون، نتحدث اللغة نفسها، وربما لو قابلته في أي يوم في شوارع القاهرة لما كنت تبادلت معه الحديث أو تعاملت معه، فهو ليس النوع الذي أفضله من الرجال، فهو إنسان تقليدي جدا، ملابسه تقليدية، وطريقته في معاملة النساء تقليدية، يتأرجح بين حب النساء وشعوره الدائم بالغواية، وبين مشاعره الذكورية التي تذكره بأفضليته طوال الوقت. ولكنه إشفق عليّ جدا عندما رآني بعد الحادث، وفاجأني بظهور وجه آخر له، وجه حبيب لا يريد سوى راحة محبوبه. لم أستوعب ما هي نوعية المشاعر التي ربطته بي منذ أن رآني، حتى قال لي يوما «أقولك حاجة وما تفهمينيش غلط، لما بأشوفك بأحس أني بأشوف مصر، أهلي، وأمي، وبأحس أني عاوز أحضنك».

استسلمت يومها لحضنه ببساطة، وشعرت كم كان يحتاج لي.. ربما أكثر من حاجتي له. فحاجتي له دائما كانت حاجات مادية بحتة، فهاني يوصلني لمشاويري التي لا أستطيع الذهاب إليها وحدي، يساعدني بعلاقاته على إيجاد عمل، يتسوق لي، يشتري لي الهدايا أحيانا، وفي المقابل... أتركه يتفحص جسدي ليقارن بيني وبين جسد زوجته العجوز، أتركه يغرق في حضني ويبكي أحيانا، عندما يختلط عليه الأمر بين حضني وحضن أمه الذي فارقه منذ عدة سنوات.

Twitter: @ketab_n

كان هاني رغم نضجه لازال طفلا بكل معنى للكلمة، طفل ضائع في غربة اختارها. لم يكن فيه أدني لمحة من يوسف، أو ذرة من رجولته وشخصيته، لذلك كنت أعرف جيدا أن علاقتنا ستنتهي عاجلا أم آجلا، وأبسط ما كان يمكن أن ينهيها هو أن تعرف زوجته عن علاقته بي. وقتها أعرف جيدا أنه لو مربجانبي في الشارع لأدار وجهه وادعى عدم معرفته بي. كنت أنتظر هذه اللحظة، وأعرف أنها قادمة لا محالة، رغم كل الكلام المعسول الذي كان يقوله لي في لحظات الصفاء.

بدأت أشعر بالدوار، أظن سببه نقص الاكسجين في الحمام. كانت رأسي ثقيلة للغاية، وكدت أن أسقط عندما خرجت من البانيو. تحاملت على نفسي، حتى لففت نفسي في فوطة، وارتميت على السرير. شعرت وكأني أتحول لشخصين، أحدهما جسد ملقى على السرير، والآخر روح ترتفع وتنظر إليه من الأعلى. أعرف هذا الشعور الذي كان يتنابني أحيانا بعد تدخين السجائر المحشوة مع يوسف. لا أظن أنني نمت، ربما فقدت الوعي. استيقظت في فجر اليوم التالي... مضى وقت طويل على تصفحي للفيسبوك الخاص بي. بعد أن رأيت صفحتي الرئيسية وبعض الأخبار، كتبت في خانة البحث اسم هاني. كانت آخر تحديثاته صورة له مع زوجته المصرية، التي ذهب خصيصا لإحضارها من مصر، وطفلهما الوليد. كان يبدو سعيدا وراضيا، وكنت حقا سعيدة من أجله.

عندما فتحت صفحة ديان، كانت تبدو أصغر في أحضان شاب من دولة عربية أخرى. قصت شعرها وصبغته باللون الأحمر،

Twitter: @ketab_n

وفقدت الكثير من وزنها. كان الفيسبوك يقول إنها انتقلت للحياة في هذه الدولة. لم أعرف تحديدا ما حدث، ولكن يبدو أن كلاهما وجد شريكا جديدا، وأن كلاهما سعيد فيما يفعله.

يبدو أن ممارسة الجنس دون حب كانت طريقتي في عقابي لنفسي.. طريقتي في الاكتئاب، والسقوط للقاع، للشعور باليأس الكامل، وانهيار كل شيء، كانت لي حدود تختلف عن حدود المجتمع الذي أعيش فيه، ولم أكن أرى ما يعتبره المجتمع خطأ كبير، خطأ في بعض الاحيان. فلطالما رأيت نساء في بيوت مستقرة، يضاجعن أزواجهن أيضا من أجل لقمة العيش والحفاظ على البيت، فقط لتجد سقفا أو رجلا يصرف عليها، تحكي الواحدة منهنعن كرهها له، وضيقها من كرشه ورائحة أنفاسه، وتنام معه في المساء فقط ليطلع عليها الصباح في البيت ذاته.

الرجل الذي أحببته يدمن الرحيل.. في المرة الأولى تركني وسافر، وفي الثانية صعد إلى السماء. الرجل الوحيد الذي حلمت بالبقاء في محرابه حتى الموت، سبقني له، فماذا أفعل إذا كان كل الرجال بعده سواء؟! وماذا أفعل إذا كنت دائما مطالبة برد ودفع كل عطايا الرجال الذين أعرفهم من جسدي، لا بأي طريقة أخرى؟ كنت أعذب نفسي وأدافع عنها في الوقت ذاته.. أفعل الشيء وعكسه، أفكر بالشيء وأفعل نقيضه، ظننت أنني مصابة بـ «شيزوفرينيا»، ولكني مع الوقت اكتشفت أن المسألة أبسط من الشيزوفرينيا، فالجميع من حولي مصابون بما أعاني منه، وكل إنسان يحمل في داخله الكثير من التناقضات.

Twitter: @ketab_n

لسنا ملائكة أو شياطين، بل بشر غير منزهين، وطريق السلام النفسي يبدأ بالتوقف عن الحكم على أنفسنا وعلى الآخرين.

تأكدت تماما أنني لست الوحيدة في هذه الازدواجية، عندما جاءتني «ديان» زوجة هاني، ترجوني إبقاء علاقته بي، مرهونة ببقائه معها!.. إذا هي تعرف! ويبدو أيضا أنه يعرف أنها تعرف! والأغرب أنها تشعر أنه في اختياره بيننا قد يختارني أنا،وربما يكون قد ألمح لها بذلك أو قاله مباشرة. والأكيد، أن «ديان» أحبت هاني، ذلك الرجل الذي اشترته بفكرة الهجرة والأوراق، وسافرت إلى البلاد البعيدة لتحضره. الرجل الذي تحملت تهوره وتقلبات شبابه في البداية، وربته لسنوات كما تربي صغيرا، فأصبح لها زوجا وابنا، يهددها الآن بالرحيل إلى امرأة أخرى أكثر شبابًا، والأهم، والذي تعرفه هي جيدا، أن هذه المرأة تحتاجه، وليس هو الذي يحتاجها، ولذلك فهو يشعر برجولته معها.

لم يعد الزواج هو الرابط الوحيد بين ديان وهاني، ولكن أيضا العمل مشترك. فبعد سنوات من الزواج، قررا عمل مشروع سويا. دبرت أمورها، وجمعت مدخراتها واستدانت من البنوك، وفتحا هذا الأوبرج الصغير، الذي يضيع نهائيا لو قرر أحدهما الخروج من هذه الشراكة. لم تفلح محاولاتها في استبقاء هاني بالنقاش معه، فقررت المحاولة من الجانب الآخر. وقتها كانت علاقتي بهاني قد استغرقت عاما كاملا. بالنسبة له كنت قد تحولت لحقيقة واقعة في حياته: عشيقة، وحياة ثانية، ينظم بينها وبين حياته الأخرى المواعيد، ويتأنق من أجلها ويعد الخطط.

Twitter: @ketab_n

كنت في ذلك الوقت مشغولة بشيء لا أعرفه، منفصلة تماما عن العالم. هاني يمثل «عنصراً مساعداً» يلبي معظم طلباتي ويسليني في وقت الفراغ، لا يهمني الظهور معه في وسط بشر لا أعرفهم ولا أهتم بمعرفتهم من الأصل، ولا أفكر فيما سيترتب على هذه العلاقة. كل ما كنت أفكر فيه هو حرية جسدي، وعلاقته بروحي وقلبي، وكيف أورطه في علاقة لا تتعدى ممارسة الجنس ولا مكان فيها للحب، أو ربما كان هناك حب ما ينمو مع الوقت، هو حب هاني لي.

وعدت ديان أنني سأنسحب من حياة هاني وأختفي تدريجيا. ولكن هذا لا يضمن رجوعه لها، أو عدم دخوله في علاقات أخرى، ولذلك سألتنيألا أخرج من حياته أو أحاول الاختفاء. سألتني زوجته أن أظل ألعب دور العشيقة، ولكن دون أن أطمح في الاستيلاء على مكانتها. لا أعرف لم اندهشت تماما، ولا أعرف لم شعرت بالشفقة عليها..أحيانا لا أفهم هذه الحياة حقا!لا زالت تستطيع إدهاشي بعلاقات البشر ومشاعرهم المركبة والمعقدة.

تؤكد ديان أنها تحبني، وأنها تعتبرني ابنتها. يذكرني وجهها بوجه تلك المرأة العربية الخمسينية، التي ظهرت في أحد التقارير الإخبارية تتكلم عن كونها الزوجة الأولى لزوج تزوج من ثلاث غيرها، وكيف أنها لا تجد في ذلك أي مشكلة، فالجميع يعيشون تحت سقف واحد في سلام كامل، يقدسون الحياة الزوجية، ومرحبين بما أحله الدين!! حتى النساء الغربيات اللاتي أخذن معظم حقوقهن، يسعين للزواج كالمجنونات، ويفضلن ظل الرجل على ظل الحائط! مسكينة يا ديان.

Twitter: @ketab_n

بعد لقائي بها، بدأت علاقتي بهاني في الفتور. أشياء كثيرة تغيرت بداخلي، المسألة أصبحت لا تخصني وهو فقط، هناك شخص آخر قد يتضرر. ورغم رضاها ومباركتها لعلاقته بي، إلا أني كنت أعرف ما ينطوي على هذا من وجع، ولا أستطيع تحمل الفكرة!

في هذه الفترة، كنت قد تقدمت في كورسات اللغة الفرنسية كثيرا، وكنت أيضا قد تعرفت على نهى من خلالها، وأخيرا أصبحت لي صديقة حقيقية هنا. ولا أنكر أن وجودها سهل عليّ كثيرا الخروج من قصة هاني تلك والبعد عنه.

هناك أشخاص يرسلهم الله إليك في فترات معينة، فقط لأنك تحتاج لوجودهم في حياتك، لأنهم وسيلة تصلك به، وتوصل لك رسائله من خلالهم.. ناس، تقابلهم لتتعلم منهم شيئا، لتعلمهم شيئا، يأخذون منك ويعطونك ما تريده في هذه المرحلة تحديدا. بعدها قد تفقدهم في الطريق، يسقطون من أيامك، ولا تحفل بهم الذاكرة كثيرا. فقط في لحظات معينة، تستطيع أن تتذكرهم وتمتن لوجودهم حولك في هذا الوقت، حتى لو اختفوا بعدها أو ابتعدوا.. ربما ستقول: لم أكن لاستطيع اجتياز هذا بدونهم أبدا.

قابلت نهى وأنا أجهض طفلي الأول. حدث الحمل من هاني عن طريق الخطأ، وعندما أخبرته رجاني أن استبقي الطفل، ولكني لم أستطع احتمال الفكرة. لم أتخيل أن أكون أما في هذا التوقيت، ومن شخص غير يوسف، وخصوصا لو كان هاني.

كان قد مر على مقابلتي لديان عدة أسابيع، عندما اكتشفت أني

Twitter: @ketab_n

حامل في أواخر الشهر الثاني. كان تقلب مزاجي وجسدي بسبب الحمل سببا جديداأبعدني عن هاني. شعوره أيضا بالظلم تجاه قراري التخلص من الطفل، وإحساسه أنني لا أريد طفلا منه، ولا أرغب في الاستمرار معه كسر إحساسه ناحيتي. تبدل حبه إلى كراهية وغيظ، لذلك تركني أمر بتجربة الإجهاض وحدي، وقرر أن تنفيذي لهذا القرار هو آخر علاقته بي، وكان عليّ الاختيار.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

كيلونا

عبرت حدود ألبرتا، وأهلا بك في بريتش كولومبيا، هكذا أشارت لي علامة ترانس كندا الخضراء، ذات ورقة الشجر الشهيرة التي نراها دائما على علم كندا باللون الأحمر. أضحك عندما أتذكر نهى وهي تسخر منها قائلة إن العلم عليه ورقة عنب. وفي الحقيقة،الورقة تسمى«مابل ليف»وهي شجرة شهيرة وموجودة بكثرة في كندا، وتأخذ أوراقها درجات ألوان مختلفة ورائعة، لتجعل من الشوارع الكندية لوحة في موسم الخريف.

يدق تليفوني، فأجد رسالة من نهى«لو كنت افتكرت ربع جنيه مخروم!»..أخرج من الطريق، وأدخل إلى مدينة كيلونا، أقف لأقرأ الرسالة، فأجدها تسألني«انتي فين يا مجنونة مختفية ليكي كام يوم جوزك اتصل يسألني عليكي». أبتسم، وأقرر ألا أرد الآن.أقود سيارتي إلى أحد المقاهي، لآخذ استراحة قصيرة. التقينا أنا ونهى لأول مرة في كورس اللغة الفرنسية.

Twitter: @ketab_n

في البداية، وكما يحدث بين معظم المصريين في الخارج، شعرنا بتنافر. كان هناك حاجز نفسي، تكون من خلال كليشيهات كثيرة عن سوء أخلاق المصريين في الغربة، أو ربما هي تركة الوجع التي تتركها مصر في قلب كل من ولد بها. لقاؤنا لشهور لم يتطور لأكثر من تحية ومحادثات قصيرة. كانت نهى غاضبة دومًا من محاولات المدرسة لغسل عقول المهاجرين الجدد، وتحويلهم من خلال المواد التي يدرسونها لمجرد عمال. بدا أنها لم تجد في كندا تلك الأحلام التي صورها لها عقلها، ولكنها رغم ذلك كانت تحبها لمدى حريتها وراحتها في البعد عن كلام الناس وتدخلاتهم في شئونها.

قرّبتنا أحداث الثورة في مصر قليلا، وجد كل منا فيها أملا للتغيير، ربما يساعدنا بعد عدة أعوام على اتخاذ قرار العودة. تبادلنا الصور والتعليقات على الفيس بوك، وكان يبدو أننا رغم اختلاف الطبقة الاجتماعية التي ننحدر منها، لكننا نشترك في الإحساس بالظلم والتهميش، ككل النساء المصريات. كنا نتفق في الدفاع عن الفقراء والنساء، وعصبيتنا ضد قضايا التحرش. قبل أحد الأعياد، قررت أن أحتفل معها في شقتي، ولم ترفض الدعوة. عندما تدخل بيت شخص، تستطيع أن ترى جزء من روحه، فالبيوت مرآة لأصحابها. ارتاحت نهى في بيتي، بدا ذلك على حركتها وجسدها. تكلمنا كثيرا، وحكيت لها عن حياتي وعن يوسف، وعن علاقتي بهاني. كنت صريحة ومنفتحة معها، ولا أخشى شيئا كعادتي. على العكس، كانت هي متحفظة ولم تحك الكثير، اتخذت دور المستمعة، وحاولت أن تساعدني في حل ما استعصى عليّ فهمه من الحياة ومن سلوك البشر.

Twitter: @ketab_n

نهى امرأة جميلة من عائلة كبيرة، لديها كل ما افتقدته في حياتي، متزوجة برجل يبدو لطيفا، كانت فخورة وهي تريني صورهما معا، ولكنها لا تبدو سعيدة رغم ذلك. في نهاية لقائنا، احتضنتني بقوة، كمن يريد أن يقول شيئا.. حضن أم، لم أجربه في حياتي سوى نادرا. قلت لها إنها أم بالفطرة، وأنها يجب أن تحصل على أطفال، لأنها ستكون أمًا رائعة بالتأكيد. اغتصبت ابتسامة وردت«الله كريم».

بعد هذه الليلة، اقتربنا كثيرا، أصبحنا كأختين أو ربما أقرب. حكت لي نهى عن نفسها وأسرارها، حياتها لم تكن ممتلئة بالأحداث كحياتي، ولكنها على بساطتها كان بها –كالعادة– شيء ناقص.

وهذه المرة كان عجز زوجها، الذي ترك في نفسها مرارة كبيرة. في البداية، أجبرتها ثقافتها الشرقية على إحساس بالدونية، وكأنها مسئولة عن جزء من هذا العجز. بعد فترة من التفكير، وبعد التغيير في شكل حياتها وأفكارها في كندا، تحولت المرارة إلى لوم، وإحساس بالظلم والغبن، لافتقادها لحق وشيء أساسي في الحياة، كالجنس والأمومة.

يقولون إن تعلم لغة جديدة هو بداية لحياة جديدة. هذا ما حدث معنا، ليس فقط بداية لحياة جديدة، ولكنه ظهور لشخصية جديدة تكمن بداخلنا، ربما شجعها وجود كل منا في حياة الأخرى كصديقتين. كانت نهى راضية ومستكينة لكل ما حدث ويحدث في حياتها، تتطور وتتأقلم في خطوات محسوبة. حتى عندما اضطر زوجها لفض عذريتها بطريقة غير لائقة، طريقة لم تحمل في طياتها أي متعة أو رغبة أو حب، أو حتى الاحترام الذي عودها عليه في معاملاتهما معا،

Twitter: @ketab_n

مررت الأمر، واعتبرته أحد حقوقه، بل وبررته بضغط أهله عليه في فض عذريتها، لأنه لو قدر الله وتم طلاق قد تذهب نهى وتخبر أهلها بأمر عذريتها، وستكون بحق فضيحة كبيرة له ولعائلته.

لم تفهم نهى كيف جمع طاهر في شخصه تلك الازدواجية العجيبة، لرجل شرقي ورجل غربي في آن واحد! ولكن بعد أن قابلت مجموعة من أصدقائه، فهمت كثيرا تلك الهوة التي يقع فيها أبناء الجيل الثاني لموجة هجرة ما. هؤلاء الذين جاءوا إلى هنا أطفالا أو مراهقين، بعد تربيتهم الأولى في الدول العربية. صحيح أن معاناتهم ليست مع اللغة والحنين الجارف وافتقاد الوطن مثل الجيل الأول، ولكنهم يتأرجحون دائما بين موروثهم الثقافي والحضاري المحافظ، وبين الحرية وما تعلموه هنا وتربوا عليه في مجتمعهم الجديد. لم يكن طاهر شخصا سيئا، على العكس.. لقد كان يعاني من مشاكل صحية، ولكن مشكلته الأكبر كان إنكاره لهذه المشاكل، والإهمال في علاجها لفترة طويلة، بسبب شكله أمام عائلته وكلام الناس. كان في دائرته الصغيرة يتصرف كرجل شرقي تماما، حتى أنه كان يترك اللوم في عدم الإنجاب ليقع دائما على عاتقها، وكأنها هي السبب، فنحن نصدق أن المرأة دائما السبب وراء كل المصائب، حتى لو أثبت العلم العكس.

بدأ التمرد عندما ذهبت نهى في زيارة لمصر وحدها دون زوجها كعادتها. كانت نهى تحتاج إلى التجربة أكثر من احتياجها لرجل.. كانت تريد معرفة ماهية الجنس، كيف يبدو؟ وكيف ستشعر به؟.. وجاءتها الفرصة، بعد محادثتها مع أحد أبناء عمومتها، الذي كان على سفر دائم. كان بينهما مشاعر قديمة، دمرها طموحه وأفكاره

Twitter: @ketab_n

الوجودية(*)، أخبرها أنه ذاهب إلى مصر في إجازة، فرتبت مواعيدها لتقابله هناك. لم يكن هناك تصريح ما بأي شيء، ولكن الاتفاق ضمنيا كان مفتوحا. كان من السهل على ابن العم المجرب أن يكتشف الجوع في عيون نهى، ويرى تلك الشعلة التي لا زالت تخبو تحت الرماد منذ فارقها آخر مرة. غربتهما حولتهما لسائحين في مصر، لم يكن أحد من العائلة متفرغا لهما، لذلك قررا تقضية الإجازة سويا، أو على الأقل جزء منها، لكي لا يكثر الكلام حولهما، فهي امرأة متزوجة والكل يعرف ذلك. اختلسا يومين في شاليه أخته بالساحل الشمالي. كان من السهل الإيقاع بها، لأنها كانت تريد الوقوع. ليس هناك ما هو أكثر غواية من تجربة شيء جديد، خاصة وإن كان شيئا يقوم به كل الناس، ويختلفون حوله، بل ويمنعونه. وقتها تتحول التجربة إلى مغامرة، ويتحول الشخص في نظر نفسه إلى بطل، وأيا كانت نظرة المجتمع أو الدين لما يفعله كخطأ، فللمغامرة حسابات أخرى للخطأ والصواب.

جوعها للتجربة جعلها شخصية بعيدة كل البعد عن شخصيتها الحقيقية. تحولت في السرير إلى لبؤة جائعة، وللحظة كادت أن تلتهمه. مارسا الحب مرات عديدة، وكأنها كانت تشحن طاقتها بالجنس.

كان هو مندهشا للغاية ومنفصلا عنها. كان يستغرب كل تلك الطاقة المختبئة فيها، وكانت هي تختبر مشاعرها طوال الوقت وتسأل نفسها، وتكتشف انفصال جسدها عن روحها. ففي الوقت الذي كان جسدها أخيرا يروي بحرية تامة جفافه بماء رجل، كانت روحها تصغر وتتقلص، وتكاد أن تختفي تماما.

(*) مبدأ فلسفي يميل إلى الحرية التامة للإنسان في التفكير والحياة بدون قيود

Twitter: @ketab_n

انتهى اللقاء، وكان غريب الأثر عليهما. فلقد أخبرها هو أنها امرأة جميلة وشهية ومثيرة، ولكنه رغم كل ذلك لم يرتح معها. لقد شعر وكأن شخصا ثالثا يشاهدهما ويراقبهما وهما معا، وشعر بغرابة في تصرفاتها، وكأنها ليست نفس الشخص الذي عرفه ورغب فيه وأحبه لسنوات وتمنى لقاءه. بالنسبة لها، لم تشعر بالرضا الذي انتظرته طويلا. ارتاح جسدها قليلا وفك عقده، ولكنها شعرت بما يشبه وعكة المعدة عند الأكل بعد صيام طويل. قالت لنفسها إن الجنس ليس مهما كما كانت تظن، وأصبحت أكثر زهدا فيه من أي وقت مضى، إلى الحد الذي توقفت فيه عن الاهتمام بعلاج طاهر، وبدأت في التفكير جديا في أن تقوم بتخصيب صناعي والحصول على طفل.. بالطب لا بالجنس. لم تندم نهى على خيانة طاهر كما كانت تظن. شعرت أن خيانتها له منحتها انتقاما مناسبا لما أخذه منها، أو ربما لما وعدها به ولم يمنحها إياه. وهذا الانتقام أعاد لها توازنا كانت تفتقده كثيرا، وأعاد لها ثقتها بنفسها، كأنثى قادرة على ممارسة الحب. وعندما حكت لي، كانت فقط تحاول التطهر من حالة الانفصام التي انتابتها وقت ممارستها للجنس لأول مرة، وكأنها كانت تريد أن تقول إنها رأت الوحش الذي يسكن بداخلها، وتستطيع الآن التحكم في أسوأ مخاوفها، تعرفه وتعرف أنها لا تريده أن يظهر مرة أخرى أبدا.

كنت أشجع نهى أن تحصل على طفل، عندما اكتشفت حملي أنا من هاني، فبدأت هي تشجيعي على إجهاض الطفل.

نهى أم رائعة، ولديها زوج وعائلة محترمة تدعمها، وحياة مستقرة؛كل الاستعدادات التي يحتاجها طفل. أما أنا فلا... هكذا

Twitter: @ketab_n

كنت أفكر، ولذلك أدخلتني هذه الأفكار في موجة اكتئاب شديدة، ونوبات بكاء حادة، فأبو طفلي هو آخر إنسان يمكن أن أنجب منه. يكفي أنه متزوج من امرأة تعتبر صديقتي. الحصول على طفل أو الإجهاض، لم تكن هذه هي القضية الأساسية التي نختلف عليها، ولكن ماهو الأفضل لكل منا في الوقت ذاته. خلاصي من الطفل بدا وكأنه سينقذني من العديد من المشاكل المستقبلية التي لا حصر لها، وإنجاب طفل كان يعني لنهى سعادة واستقرارا أكبر في حياتها مع طاهر، والتي بدا بعد فترة أنها لم تعد ترغب في تغييرها، بل على العكس تماما تخلت عن أنوثتها في سبيلها، وأصبح حلمها أن تمارس أمومة تعوضها.

اكتشفت أن قرار الإنجاب يخص المرأة أكثر من الرجل، فالطفل ينمو في جسدها، وهي التي تتحمل معظم مسئولياته، ولذلك فعليها أن تكون مستعدة كفاية قبل اتخاذ هذا القرار. ولذلك قررت كل منا أن تفعل ما يناسبها، وتقريبا في التوقيت نفسه.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

ميريت

بعد أن خرجت من كيلونا، لم يعد بيني وبين فانكوفر سوى عدة ساعات. كانت المحطة القادمة تشير إلى بلدة تسمى ميريت، وكأن تلك الإلهة الفرعونية قررت أن تمنحني دعما وإشارة في الطريق، كتلك التي وصلتني على هيئة حلم، وأخبرتني أنني يجب أن أتمم عملية الإجهاض. يومها وصلت قبل موعدي إلى المكان، أخّرت نفسي بالجلوس على واحد من المقاعد المتناثرة بعشوائية في حديقة صغيرة أمام المبنى. كان يبدو كمستشفى، رغم الإعلان الكبير عن وجود شقق سكنية. لوحات الإعلانات الصغيرة، التي تعلن عن وجود العديد من العيادات والأطباء، ذكرتني بأبراج الأطباء المنتشرة في بعض ضواحي القاهرة.

أرسلت رسالة قصيرة من تليفوني لنهى، ووقفت لأعبر الشارع في تباطؤ. أثناء انتظاري وصول المصعد، تأملت بوابة الصيدلية المحتشدة بصور الأطفال، وإعلانات الفياجرا، ومستحضرات التجميل.

Twitter: @ketab_n

يبدو المصعد قديما جدا، تدل على ذلك اهتزازاته قليلا أثناء الصعود. أحب المصاعد القديمة، ولكن المصاعد القديمة هنا هي في الحقيقة مصاعد حديثة في القاهرة. فالمصاعد هناك قديمة بالفعل، تشدها الحبال، ولها بوابات زجاجية تغلفها بوابات معدنية من الحديد المشغول، قد تحوي مرآة، وأحيانا مقعدا صغيرا، ويجب أن تحتوي على أزرار تالفة أو مستبدلة بأخرى جديدة غير متلائمة مع باقي الأرقام والأزرار.

التفكير في المصاعد يشتتني قليلا عن التفكير فيما أنا مقبلة عليه. الباب الموصد لعيادة «مورجين تلير»(*) يذكرني بقول صديقتي بأنها الأشهر في العالم، وأنه قد تم تفجير أحدفروعها في تورنتو، ولذلك فهي دوما مهددة بالهجوم والتخريب من قبل الجماعات المضادة لفكرة الإجهاض.

علامة صغيرة تأمرني بدق الجرس، فلا أفكر في التراجع. صوت أزيز يعلن فتح الباب من الداخل، صالة صغيرة وسيدة وراء نافذة زجاجية -أتخيل أنها مضادة للرصاص وغير قابلة للكسر- ليس بها فتحات سوى حد سفلي صغير، يكفي بتمرير ورقة.أخبرها عن موعدي، فتسألني عن بطاقة الهوية. بعد أن تتاكد من موعدي وشخصيتي، تأمرني بخلع حذائي وارتداء آخر طبي معقم. أترك معطفي وحذائي، وأدخل من باب جانبي.

في مقابل الباب، أجد صالة انتظار أخرى ممتلئة بالأزواج. المكان

(*) طبيب شهير من أهم المدافعين عن حق المرأة في قرار الإجهاض وصدور قانون بعدم تجريمه، وأحد أعلام كندا

Twitter: @ketab_n

يفوح برائحة المستشفيات، وجدرانه رمادية مليئة بالبوسترات الطبية. في الغرفة، كانت كل امرأة مصحوبة برجل، وكانت اللحظة التي اكتشفت فيها أني امرأة وحيدة تواجه مصيرها، دون الاحتماء بذلك الحائط المسمى الرجولة. امرأة وحيدة، تلفحها نظرات الأخريات بشفقة حارة ولاهبة، وكأنهن ينظرن لشخص يواجه الموت وحده. بادلتهن نظراتهن بنظرة لا مبالاة وتجاهل، نظرة امرأة تنتظر دورها في محل تصفيف الشعر.

ملأت العديد من الاستمارات، ووقعت بالموافقة على كل ما قدم لي. قرأت التعليمات، فأغلقت تليفوني المحمول. ينسحب زوجان من القاعة كلما ظهرت سيدة عجوز نحيفة لتنادي اسم امرأة...

تبتلع الغرف الداخلية للمكان الجميع، فلا ألتقي أيًّا من وجوههم مرة أخرى.

يأتي دوري مع السيدة النحيفة، فتدخلني إلى حجرة صغيرة، بها مكتب أمامه مرآة، يبدوان معا كجزء من غرفة نوم، وتجلسني على مقعد مريح، وتجلس أمامي وتخبرني «أنا مستشارة وخبيرة في هذا الشأن»، وتسألني عن قراري، وهل أنا متأكدة منه، فأؤكد بكلماتي ورأسي وحركات جسدي.

الغريب أن لا أحد يسألني عن الأسباب.

تخبرني بأنه سيتم تثبيت أشياء في جسدي.. تريني عصي صغيرة في كيس شفاف، وتقول لي إنهم لن يثبتوا كل هذا العدد، ولكن بعضا منه فقط، وأنهم سيقومون بالعملية في اليوم التالي.

Twitter: @ketab_n

تسألني لثلاث مرات متتالية، وباندهاش شديد، بعد أن تنظر فيما ملأت من استمارات. أهذه هي المرة الأولى لك مع طبيب نساء؟ جاء هذا السؤال بعد أن سألتني عن عمري، وأكدت لها أنه ثلاثون عاما كما هو مكتوب.

كدت أن أقسم لها أنني لم أكشف عورتي أمام طبيب من قبل، وتوقفت هي عن السؤال عندما أخبرتها أن ثقافتي الشرقية هي التي فرضت عليّ ذلك، فطمأنتني هي بأن الأطباء الذين سيباشرون الكشف عليّ خلال اليومين من السيدات.

تسألني عن أكثر ما يقلقني..أنبهر لإهتمامهم بمشاعري، فأجيب: الألم... الألم هو أكثر ما أكرهه في هذه الحياة.. أنا لا أخشى حتى الموت... ولكني لا أحب الألم

في أماكن أخرى، لطالما مارست تجارب كهذه، ولم يسألني أي شخص عن مشاعري قبل التجربة أو حتى بعدها! ربما كان السؤال يأتي لاحقًا.. هل يؤلمك؟

– نعم...

فيجيب الطبيب أنه من الطبيعي أن يؤلم. من الطبيعي أن يؤلم!... كذب!.. ظلت جدتي ترعبني من الجنس وتخبرها أنه يؤلم، ولم يؤلم، بل لقد ذهبت إليه بإرادتي واستمتعت به. لم يوقظ الألم كما كنت أظن، بل خدرني تماما بلذته.

وكانت فعلا المرة الأولى التي أفتح فيها ساقيّ بوعي كامل، عندما مدت الطبيبة يدها داخلي، وكأنها تنتزع بكارتي. آلمتني أصابع الطبيبة،

Twitter: @ketab_n

العصي الصغيرة داخل الكيس، أتخيل دخولها واحدة تلو الأخرى، أهمس آه.... فيضعون على فمي أكسجين، ويأمروني بتنفس منتظم، يلهيني قليلا عن الألم.

كم أكره الألم! رغم أني تجرعته طوال عمري.

أقف، فتسقط بقع دم على الأرضية، أشعر بكل الأجسام الغريبة التي تم إدخالها إلى عنق رحمي، أرتدي ثيابي، وأستمع للتعليمات، وأعود وحيدة.. وكأني عجوز لم يأت أي شخص لزيارتي في وقت الزيارة. أتقيأ كل ما يصل جوفي، ويؤرقني جسدي، أستعجل الساعات للغد وأخشاه.

في نفس المكان، تدخل الطبيبة يدها. قبل أن أغمض عينيّ، أنظر للنافذة الزجاجية الكبيرة، فتقول لي السماء الغائمة أنها غاضبة مني. أبادلها الغضب بغضب، واللوم باللوم، وأشعر بالشفقة على نفسي. رغم المخدر، أشعر بروحه تخرج مني، أنتظر حتى أشعر بانتهاء العملية. «هل يمكنني أن أراه؟»

أشعر بالرد حادًا واستبداديًا يمنع عني حق ما «لا»

أصمت صمت طالبة تعاقب وهي تعلم أنها تستحق العقاب.

أقف، فتملأ الدماء أرضية الغرفة. أرتدي ملابسي، وأعود وحيدة وكأني عجوز عمرها ألف عام، شهدت موت جميع أبنائها، ولا تستطيع الحصول على متعة اللحاق بهم.

في النهار التالي، أشعر أني تطهرت.

Twitter: @ketab_n

في النهار التالي، أتأمل السماء التي أشرقت، بعد ليلة عاصفة، وأهمس إلى الروح التي خرجت مني للأبد ولن تعود:

«أعرف أنك تشعر بي وتسامحني».

* * *

وصلت إلى ميريت بالفعل. كانت مدينة صغيرة جميلة، لما لا أتناول طعامي هنا، ثم أكمل طريقي؟.. فحصت«الجي بي أس» لأعرف ماهي المحطة القادمة، ولم أصدق نفسي عندما وجدت الطريق يتجه جنوبا، ورأيت أن المدينة القادمة تسمى«هوب»، وتعني في الإنجليزية«أمل». العلامات تقول لي إنني على الطريق الصحيح.. لطالما كنت أؤمن بالعلامات.

كنت آكل وأقلب صفحات الإنترنت بحثا في إعلانات السكن والبيوت. لم أكن أعاني من مشكلة مادية، لأن الفقر علمني الاستغناء عن العديد من الأشياء. كنت أعرف كيف أدخر لوقت الحاجة، ولم تكن طلباتي في الحياة كثيرة عموما، لذلك كان معي دائما ما يفيض عن حاجتي، خاصة وأن قوانين الأجور التي تحكم كندا كان بها حد أدنى. ولأني كنت أعمل طوال الوقت، فقد ضمن هذا لي مرتبا يجعلني أعيش مرتاحة دون توتر، وأدخر ما يفيض.

الإنترنت هو عمود الحياة هنا، تستطيع أن تسأله عن أي شيء وكل شيء،ويساعدك. اعتماد الناس عليه أصبح خطيرا، ولكنه أسهل طريقة للوصول للمعلومات الآن...

Twitter: @ketab_n

بعد الإجهاض، تغيرت أكثر وأكثر. كان أول احتكاك لي مع فكرة الأمومة والمسئولية عن شخص غيري. فكرة أن أكون تلك الأم التي فقدتها في طفولتي كانت تؤرقني. كنت أتساءل: ماذا لو كنت قد ورثت من أمي اكتئابها وجنونها، الذي دفعها للحظة الانتحار؟! ماذا لو تركت أولادي يواجهون مصيرا يشبه مصيري، الذي شقيت به لسنوات طويلة؟ كنت استغرب طوال عمري وأنا أرى أقاربي ومعارفي يتزوجون وينجبون، دون أن تخطر على بالهم حتى أفكار مثل هذه.. دون أن يفكروا ولو قليلا في توابع هذا القرار من مسئوليات!

فجأة، قررت أن أفكر في نفسي، وكل تلك المشاكل النفسية التي أدفنها داخلي. حالة الحزن الشديد والرعب الذي أصابني عندما عرفت بالحمل لم يكن طبيعيا أبدا، خاصة في بلد مثل كندا، كان يمكنني فيه منح الطفل اسمي، وكان يمكنني أيضا أن آخذ كل حقوقه من أبيه الأصلي. بدأت أعي مدى الخلل في داخلي، وشعرت أنني يجب أن أصلح تلك الأعطاب التي أصابت روحي، نتيجة لتربية معينة أو أفكار تحتل مخي وتبرمجه لفترة طويلة. والإنترنت كان طريقي لفعل ذلك، فقد بدأت القراءة في علم النفس، ومشاهدة العديد من الأفلام الوثائقية والتجارب. بدأت في مرحلة جديدة من الوعي بوجودي وبالإنسانية نفسها.

بعدها بأسابيع قليلة، ذهبت ووضعت مانعا للحمل. كانت الفكرة مزعجة للغاية بالنسبة لي، تتقلص أمعائي وأتألم كلما تخيلتها، بسبب خبراتي وأفكاري القديمة. فعندما كنت في الحادية عشر من عمري، أرسلتني زوجة أبي بورقة إلى الصيدلية المجاورة.

Twitter: @ketab_n

أعطيتها مع ورقة النقود إلى البائع، فأعطاني علبة كرتونية مرسوم عليها شيء معدني يشبه الصليب أو حرف (T) الإنجليزي، أو هياكل الطائرات الورقية التي كنا نصنعها أنا وأبناء عمومتي فوق سطح بيت جدتي في ذلك الوقت، خاصة لأنه كما يتدلى من هيكل الطائرة ذيل طويل، كان يتدلى من تلك الأداة خيط طويل، يفوق طوله حجم الأداة نفسها. كان بداخلي فضول شديد لمعرفة ما هذا الشيء، كانت زوجة أبي تغلف الأمر بحالة من السرية، تجعل فضولي يزداد أكثر فأكثر. سرية تشبه تلك التي تتعمدها وقت أن تصنع عجينة السكر، وتمنحنا منها بعض القطع نلوكها أمام التليفزيون، في حين تدخل هي إلى الحجرة مع الطبق، لتخرج بعد ساعة أو أكثر،وتسير بسرعة سهم منطلق إلى الحمام، لتخرج بعدها أجمل كثيرا، وأكثر إشراقًا؛ لكن الغريب أن بعدها عادة ولمدة يومين، يتحول إبهامها من اللون الأحمر إلى اللون الأزرق، إلى أن يعود إلى لونه الأصلي.

كنت أدرك بشكل ما أن هذه الطقوس أنثوية بحتة، فأبي لا يمارسها. وكنت أدرك أنها قد تكون مجهدة أو مؤلمة بعض الشيء،ولكني لم أكن أعرف مدى ذلك الألم الذي كانت تظهر آثاره على وجه نساء عائلتي أحيانا. كما أن صرخاتها وتأوهاتها المصحوبة بتزييق السرير ليلًا، كانت تؤكد لي هاجسي الدائم، بأن شيئًا موجعًا ومريرًا مرتبط بكوني أنثى، سوف يكون مصاحبًا لي طول حياتي. وقد أصبح هذا الهاجس واقعا بالفعل يوم ختاني. ياترى ما هذا الجهاز وكيف ستستعمله؟ربما أنتظر حتى تفتح العلبة وأحاول أن أكتشف سره. فبعد وقوفي لنصف دقيقة في بئر السلم المظلم أقلب العلبة بيدي، وكأن جنياً سيخرج منها،

Twitter: @ketab_n

لم أجرؤ على فتحها، لأنها بالتأكيد ستكتشف ذلك. وصلت العلبة مغلقة وكما تسلمتها من الصيدلي، ولكنها لم تفتحها. فقط أخذتها من يدي، ووضعتها في حقيبة يدها، ونسيت الأمر بعدها.

اليوم مددت يدي مرة ثانية للصيدلي بورقة مشابهة والنقود، وأعطاني العلبة، وكنت أعرف ما بداخلها.. نفس الشيء المعدني، والذي من المفترض أن أضعه في جسدي، لأمنع حدوث أي حمل! مزعجة للغاية تلك الفكرة، تتقلص أمعائي وأتألم كلما تخيلتها.

ولكن هي ضريبة ما فعلته. لا أعرف لم؟ ولكن وكأني لأول مرة أدرك خطورة الممارسات غير المسئولة للجنس، أو كما تسميها الأديان«الزنا». على الأقل لتلافي حدوث حمل غير مرغوب، وأيضا لأنه قد يكون سببا في انتقال العديد من الأمراض. فالجنس علاقة خاصة جدا، والتعددية فيه أو الانسياق وراء الرغبات قد يسبب العديد من المشاكل، خصوصا في حالة حدوث حمل!

والحل -كما رأيت من تجربتي- لم يكن أبدا في التحريم أو التجريم، فأنا أعرف أنه حرام في كل الأديان، ولم يمنعني هذا عن الدخول في علاقات في مصر، حيث يتغنى الجميع بشعار«شعب متدين بطبعه»، ويضعون تحت الزنا آلاف الخطوط الحمراء، والكل يعرف أنه عيب وحرام، إلا أن الخيانات الزوجية والعلاقات والممارسات الجنسية منتشرة بشكل كبير وفج.

عملي لسنوات طويلة في الفنادق جعلني أشهد بعيني العديد منها، مما جعلني أتجرأ أحيانا وأدخل في علاقات دون تخطيط.

Twitter: @ketab_n

فلقد وصلت الثلاثين دون أن أعرض نفسي على طبيب نساء، ودون أي دراية بما قد يفعله الجنس في جسدي. الحل الوحيد هو الوعي.. أدخلتني هذه التجربة في مرحلة الوعي، بمعرفة ما يمكن أن تسببه العلاقات العشوائية من مشاكل، العلاقات التي لم يتم التخطيط لها جيدا، العلاقات التي لا تحمل في داخلها حبا واحتراما يحميها. في بئر سلم العمارة التي بها عيادة طبيبة النساء أقف، أقلب هذه المرة العلبة في يدي، وبداخلي رغبة عارمة بإلقائها بأقرب صفيحة قمامة. رنة على تليفوني من نهى، يبدو أنها تريد الاطمئنان عليّ وتطمئني عليها، فهي تجري عملية التلقيح اليوم أيضا. ألعن في سري كل الرجال، فهم السبب في كل هذه المعاناة.

أتصل بنهى،فتسألني عن ذهابي للطبيبة، فأخبرها أنني في الطريق، وأصعد السلم متثاقلة. لم تصل الطبيبة بعد، تشير لي الممرضة بالانتظار، أتنفس الصعداء وأجلس.. أتحسس العلبة داخل حقيبتي، بعد أن أتاني هاجس بأنني ألقيتها أو فقدتها أثناء حديثي في التليفون.

أفكر لما لا يتكبد الرجال عناء مثل الذي نعانيه نحن النساء، ولكن يبدو أننا كنساء بطبيعتنا نحب أكثر كلما عانينا وتعذبنا.

العجيب، أن وضع هذا الجهاز لم يكن مؤلما كما تصورت، وحتى وجوده لم أشعر به طول السنوات التي وضعته فيها. يبدو أن التجربة هي الحل الوحيد لمعرفة الحقيقة، بدلا من سماعها من الآخرين. لو كنت أعرف من البداية، ربما لم أكن لأمر بتجربة موجعة مثل تجربة الإجهاض.

Twitter: @ketab_n

فقداني ليوسف ولطفلي الأول غيرني كثيرا. أصبحت أكثر خوفا، لأنني تأكدت أنني،رغم عدم امتلاكي لأي شيء، فلقد كان لديّ دائما ما أخسره.. أجزاء من روحي كانت تتساقط، كالطلاء القديم في حوائط بيت أبي،لتترك مكانها صورًا وفراغات. في الماضي، كنت قادرة دوما على ملئها بالأحلام والصور، أما الآن فالفراغات في روحي لا يملؤها شيء.

بعد انتهاء علاقتي بهاني، وانقضاء فترة النقاهة من عملية الإجهاض، أصبحت أكثر حرصا في اختيار معارفي أو الدخول في علاقات. ركزت أكثر في الدراسة، وعدت للعمل. كان الدخول في علاقة في تلك المرحلة لا يعني الحب أو حتى الاحتياج للجنس، قدر الاحتياج إلى الاستقرار، لذلك كنت أسقط من حساباتي كل ما يهز توازني واستقرار حياتي وعملي. ولكني كنت أشعر بوحدة شديدة، خاصة بعد أن أنجبت نهى طفلة جميلة وانشغلت بها، مما جعلني أقبل دعوة ملحة من أحد زملائي بالعمل، وأترك علاقتي به لتسير في مسارها الطبيعي، ولكن بحرص شديد هذه المرة.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

هوب

عندما طلب مني«آلان» -كما يحدث عادة- أن أنتقل للحياة معه في البيت نفسه، ومشاركته كل شيء.كنا فعليا في علاقة على الطريقة الكندية، حيث نلتقي في ليالي«الويك اند»، نمارس الحب، ونخرج سويا، ونطبخ، أو نتشارك الأنشطة اليومية، ولكن كل منا يعيش في بيت منفصل.كنت أواجه مشكلة مع الحكومة الكندية بخصوص إقامتي وتصريح العمل الذي انتهى وقته. وعندما حكيت له عن وضعي بصراحة، فاجأني باستعداده لزواجي ومساعدتي في الحصول على إقامة دائمة، ولكنه اعتذر لعدم قدرته المادية للقيام بذلك، فقلت له إنني سأتكفل بكل المصاريف، ويكفي أنه سيساعدني للحصول على الأوراق.

لا أعرف تحديدا ما الذي دفعه لفعل ذلك. ربما كان يحتاج شريكا للحياة وممارسة الحب، ربما مل من تعدد العلاقات والتنقل بين النساء كعادة الناس هنا! ولكنه بالتأكيد ليس حبا.

Twitter: @ketab_n

فهذا الرجل الذي بدأت باكتشافه بعد الزواج منه والحياة معه، شخص عملي للغاية، كمعظم الغربيين، يعرف ما يريده ويفعله، يحدد هدفه ويعمل حتى يصل إليه. كان آلان في أواخر الأربعينات، وكنت على عتبة الثلاثينات، ولكن كانت هناك هوة عميقة بيننا، تتسع كل يوم، ربما كان سببها ذلك الفرق الرهيب بين علاقتي بيوسف، الذي كان يحتويني تماما رغم حياتي القصيرة معه، وبين تصرفات آلان، التي تمنحني مساحة خاصة وفراغاً كبيرين. كنت أشعر أنني قد تزوجت من جهاز أو ماكينة، لا كائن بشري، كل شيء محسوب ومقدر. مرت السنوات الأولى وأنا أصبر نفسي بالحصول على الأوراق، لكني كنت أشعر بغربة شديدة معه، وحدة لم أشعر بها حتى وأنا وحدي.

كنت أحلم بيوسف تقريبا كل ليلة، أفكر فيه في كل اللحظات التي أحتاج فيها لرجل.. كانت أيامي مع آلان تمر بلا أي معنى. نعمل ساعات طويلة، نمارس الحب، وننام حتى نستيقظ للعمل.. هكذا في دائرة مفرغة، لا توجد لغة أو اهتمامات مشتركة، وكأننا كائنان من كوكبين مختلفين، التقيا في مكان، واضطرا للعيش معا. ولكننا عجزنا عن اختراع لغة للتواصل. حتى محاولاتي في الانجاب فشلت، وكنت أعرف جيدا أني أستطيع، ولكن يبدو أن القدر قرر معاندتي هذه المرة.

كان آلان يبدو لطيفا جدا وهادئا للغاية، تماما مثل طاهر زوج نهى. كنت أسخر بداخلي كلما خرجنا للعشاء سويا، فمن يراني معه ويرى طاهر مع نهى، سوف يحسدنا على السعادة والانسجام والهدوء والتفاهم. والحقيقة كانت فراغا كبيرا يبتلع كل شيء مشترك ومهم.

Twitter: @ketab_n

كان آلان أنانيا جدا، فهو لا يفكر إلا بنفسه وما يريده من الحياة أو مني، ولا يبالي أبدا بما أريده أنا. وعندما أطالبه بالاهتمام بي قليلا، أو مبادلتي الاهتمام، يرد بأني يجب أن أهتم بأموري مثله، وأنه لم يطلب مني الاهتمام على أي حال!

ورب ضارة نافعة.. دفعتني شخصية آلان، وتلك المساحة التي تركها فارغة تماما، بالتفكير أكثر بنفسي. ملأت وقتي بالدراسة والعمل، وبدأت أجرب أشياء جديدة كثيرة، أصبح لي أصدقاء من كل الأعراق والبلدان، واندمجت أكثر في المجتمع. بعد أن أنهيت دراستي، بدأت في العمل التطوعي بجانب عملي.بعد أن كنت أكره الشتاء، بدأت في ممارسة الرياضات الشتوية، مثل التزحلق على الجليد وأنواعه المختلفة.

على الرغم من أن آلان لم يمنحني الحب والدفء، إلا أنه منحني مساحة من الحرية جعلتني أعيد ترتيب أوراقي، وأعمل أكثر على تكوين جديد لمظهري وشخصيتي.

أثناء المقابلة الأخيرة لاجتياز اختبار الإقامة الدائمة، اكتشفت أني لا أعرف عن آلان الكثير. كنت أجيب على كل الأسئلة الخاصة بتفاصيل حياتنا معا، أو عن حياتي أنا، أما تفاصيل حياته هو! ماضيه! ما يحب! ما يكره.. كل هذا كان مجهولا بالنسبة لي. المقابلة تمت معي في البداية لمدة طويلة، قد تزيد عن الساعة، بعدها يدخل هو وحده، وتم توجيه نفس الأسئلة له، ليتم التأكد من صحتها، ومن وجود علاقة حقيقية بين الشخصين.

Twitter: @ketab_n

مقابلة يتم السؤال فيها عن كل شيء: العادات اليومية في الأكل، والنوم، تاريخ العلاقة، والأقارب والأصدقاء، شكل البيت.. حتى العلاقة الحميمة وعلامات الجسد يسألون عنها.

ورغم فقر معلوماتي عن آلان،نجحت بفضل إجوبتي الصحيحة عن كل ما يخص حياتنا معا، وحصلت على الإقامة الدائمة، شهادة ميلادي الجديدة!

بعد حصولي على الأوراق، لم أعد أشعر بأي رغبة في البقاء معه. أصبحت كالمهاجرين الذين يقررون مغادرة كندا الباردة فور حصولهم على الباسبور الكندي والجنسية. حاولت تأجيل قراري، ولكنه أصبح رغبة ملحة.. رغبة استولت عليّ كليا، فأهملت عملي وقررت تركه، لأنه يربطني به ويربطني بالمكان. كنا غريبين جدا، ولم أشعر بأي مشاعر تجاهه،رغم كل السنوات التي قضيناها معا. ربما حتى هاني كان أقرب لي منه، فهاني كان يشعرني دائما أنه يحبني ويحتاج لي، أما آلان فلا يحتاج إلى أحد.

في الليلة التالية لوصول كارت الإقامة إلى بيتي بالبريد، كان قد مر على حصولي على الإقامة شهر ونصف تقريبا. بدأت الاستفسار عن إجراءات الطلاق، وعرفت أنها ستستغرق وقتا طويلا، وستدخلنا في صراعات وسجالات طويلة أمام المحكمة، وقد يتم تجميد حساباتنا البنكية بسببها. ولم أكن على استعداد للدخول في أي صراعات، لذلك قمت بمحاولة أخيرة للإصلاح. قمت بتحضير عشاء جيد، وأحضرت النبيذ الذي يحبه وصندوق من البيرة، استعدادا لمناقشة

Twitter: @ketab_n

حامية. بعد العشاء، بدأت الحديث، فاقترحت عليه أن نغيّر قليلا في نمط حياتنا. كان يبدو وكأنه لا يسمعني، يتصرف بلا مبالاة بي أو بمشاعري. ليلتها اندس في الفراش، وبدأ في ممارسته للجنس معي، بآلية شديدة كعادته. بعد أن انتهى أزاح جسده عني وأعطاني ظهره، وأنفاسه ودقات قلبه لم يهدءا بعد. شعرت أنني لم أعد أطيق صوته أو رائحته أو اقترابه مني في تلك اللحظة.. شعرت أنني أريد أن أقوم وأفتح باب البلكونة وأقفز لأنهي حياتي، أو أن أفتح باب البيت وأخرج لأبدأ حياة جديدة.

وقررت أن أرحل في الصباح.

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

سُري

سوف يقولون إني هربت بعد أن أخذت أوراقي وحققت مصلحتي، يقولون ما يقولون، فأنا لا يهمني شيء، لقد استسلمت لهذه العلاقة لمدة أطول من اللازم، وتركتها تأخذ من روحي وجسدي الكثير. ليست هذه العلاقة فقط، ولكن معظم علاقاتي السابقة تقريبا. حتى علاقتي بيوسف، كانت تبدو دائما وكأني آخذ منه، وفي الحقيقة كنت أعطي وأمنح أجزاء من روحي هي الأغلى، في مقابل أشياء بسيطة تضمن لي الحماية والبقاء. سوف يلوموني كثيرا، على ترك الرجل الأبيض ذي العيون الزرقاء، ولن يسألني أحد عن السبب، ولن يمكنني توضيحه، لأن لا أحد سوف يفهم أنني تركت رجلا وهربت، فقط لأنه لا يسمعني، وإن سمع لا يفهم.

وكأن السماع والفهم ليسا واجبا على الرجال تجاه النساء، ولكن العكس هو الصحيح. حتى في أكثر المجتمعات تقدما، يبقى على المرأة السمع والطاعة، والتحرك في حدود مرسومة من الصعب تخطيها.

Twitter: @ketab_n

لن يفهم أحد لم أترك رجلا لم يضربني أو يهينني أو يخونني، وكأن الواحدة منا يجب أن تهان وترتكب في حقها الجرائم قبل أن تنطق «لا» صريحة وواضحة. هل يكفي أن تقول المرأة إنها تركت رجلا فقط لأنها لم تعد تطيق عشرته؟ هل يمكن للجارية أن تتمرد على سيدها، دون أن يلوم عليها أحد؟!

نعم يمكن، وها أنا أفعل ذلك للمرة المائة، أتمرد على قدري وأحمل روحي التي لا أملك غيرها، وأرحل. قد يكون ذلك صعباً على أي امرأة أخرى، ومن قال إنه كان من السهل عليّ في كل مرة أن أتخطى كل ما حدث وأغلق ورائي بابا وراء باب، دون أن أعرف ما الذي سأواجهه في المستقبل؟.. ومن منا يعرف المستقبل أو حتى يستطيع التنبؤ به؟!على أي حال، لو لم أكن فعلتها في المرة الأولى، لما كنت أبدا لأصل لمكاني الآن، إن أعمارنا مراحل وخطوات متتابعة، درجات في سلم، صعودا وهبوطا، كل درجة تأخذك لما بعدها.

سُري من أقرب المدن لفانكوفر. ورغم اقترابي من نهاية الرحلة، إلا أنني قررت -لا أعرف لم- التوقف فيها.بعد عدة دقائق من الدوران، وصلت لمركز المدينة، حيث العديد من المحال. لمحت أحد اليافطات، فقلت: «وهذا بالفعل ما أحتاج اليه». لافتة بسيطة، تعلن عن وجود «سبا»، أو حمام شعبي. همست في سري

«الله يرحم جدي... مساج»

دائما ما كنت أستكثر على نفسي هذه المتع، وأذكر نفسي بما كنته في مصر.

Twitter: @ketab_n

تلك الرفاهية التي يتمتع بها الناس هنا تؤلمني أحيانا، عندما أتذكر الملايين الذين يعيشون تحت خط الفقر في بلادي، وحياتي بينهم لأكثر من ٢٥ عامًا. ولا أستطيع أن أغيب ضميري بحجة أن كل شخص مسئول عن مصيره، وأن بيدهم تغيير مصيرهم إذا أرادوا. ورغم أنني واحدة ممن غيروا مصيرهم بأيديهم، كما يقولون، ولكنيلا زلت أشعر بظلم كبير يقع على سكان هذه المناطق من العالم.

«دعينا من عالمك الملئ بالمآسي..وادخلي عالم المتعة اللانهائية وما بعدها.. لما لا؟!» هكذا همست لنفسي في المرة الأولى التي مررت فيها بهذه التجربة، عندما بدأت باستكشاف روحي وجسدي بعد الإجهاض.كان من يقوم به امرأة، وكانت تجربة عظيمة في الحقيقة. في المرة الثانية، وأثناء الحجز، أجبت بأني لا أبالي إذا كان من يقوم بهذا رجل أو امرأة. همست لنفسي «تجرأتِ كثيرا». عندما وجدت في انتظاري رجلاً شاباً أبيضاً بشعر أشقر مربوط كذيل الحصان، جاء لاستقبالي وسألني عن اسمي وعرفني باسمه، الذي نسيته في لحظتها أو ربما لم أسمعه من الأصل من كثرة اضطراب أفكاري، دخلنا الغرفة وجلسنا متقابلين، وكطبيب بدأ يسألني بعض الأسئلة الطبية ويكتب إجاباتها. سألني عن أي شيء خاص أريده، أخبرته أني أحتاج إلى مساج قوي خاص للظهر، وليس فقط مساجا للتهدئة. سألته عن المساج التايلاندي، لأني لم أجربه من قبل. قال لي إنه يتطلب النوم على الأرض، وأنه مساج يكاد يكون عنيفا. كنت أعرف هذه المعلومات، وأعرف أيضا أنه لا يحتاج إلى خلع الملابس، لأن الفكرة كانت مؤرقة جدا لي، وكدت أندم أنني لم أطلب فتاة.

Twitter: @ketab_n

قال الشاب إنه سيقوم بمساج ليس خفيفا وناعما جدا، ولكنه أيضا ليس حادا كالـ «التاي».. نوع اسماه «هاواي مساج». قلت في عقلي «أي شيء من هاواي قد يفي بالغرض!»، وابتسمت.

يومها خلعت ملابسي، واستلقيت على طاولة المساج، وفردت الغطاء على جسدي، والفكرة الوحيدة التي سيطرت على رأسي آنذاك هي «سيقوم بلمس جسدي رجل غريب تماما عني!!». أعرف أنني أبدو أحياناكمهووسة جنسيا، وربما هذه هي الحقيقة، أو ربما هي النتيجة الوحيدة الطبيعية للطريقة التي نتربى عليها، فعندما دخلت الغرفة مع الشاب انطلق في رأسي «الاستريو تيب»، «ما اجتمع رجل وامرأة إلا و....» كانت الفكرة تشوشني تماما، وعلى الناحية الأخرى كان الشاب باردا.. محايدا... عمليا.. ومحترفا... وربما لو كان لديه القدرة على قراءة الأفكار، لظن أنني مجنونة وطردني من الغرفة.

«ما اجتمع رجل وامرأة...» تساءلت! أي رجل وأي امرأة؟ مهما كانت الفروق الجنسية والعمرية والفردية والاجتماعية والمادية بينهما،أي رجل وأي امرأة! حتى لو كان هدف اجتماعهما لا يتطلب وجود الشيطان أصلا، مثل الطبيب والمريضة مثلا!!؟ أي رجل وأي امرأة!!

في هذه المرحلة كانت كل الاسطوانات المحفوظة والقواعد التي تم تلقيني إياها في مصر من خلال المجتمع والدين تبدأ في التهشم تماما بعد كل تجربة. فعندما دخل الشاب إلى الغرفة، ومن فوق الغطاء، رفع أقدامي على وسادة عالية، وبدأ في تهيئة جسدي.. فرد

Twitter: @ketab_n

الذراعين في وضعية أكثر راحة، وبدأ العمل بفقرات ظهري ورقبتي، فشعرت أن يده محايدة تماما، محايدة لدرجة جعلتني لا أشعر أبدا بحضوره كرجل، أو حتى كإنسان، قدر شعوري بجسدي نفسه بين يديه. لم أرتعش أو أستثار أو أغيّر، أو حتى اضطرب اضطرابا خفيفا للمساته.

لم أشعر بأي رغبة من أي نوع، سوى أنني أريد أن أريح جسدي بعض الشيء بهذا المساج، وكأن الشاب أرسل بيديه رسائل مشفرة إلى جسدي، أوقفت تماما كل أفكاري الخاصة بالجنس أو بكونه رجلا! بدأت عضلاتي تلين أو تتوتر لضغطه عليها، وأحيانا كنت أشعر بألم في مواضع معينة، فأكتشف ضعفها، كعضلة الفخذ أو جانبي الأيسر، وكأن يده تكتشف أعطابا تملأ جسدي، ويلهيني الجري اليومي في كل اتجاه عن التفكير فيها أو الإحساس بها!

جسدي... هذا الكائن الذي تعلمت منذ البلوغ أن أكرهه، وربما من قبل هذا. العقاب لي لو لمسته أو تركت آخر يلمسه.. السخرية في السادسة من سقوط الأسنان.. التعنيف من زوجة أبي لمداراة كبر صدري، والتخويف والترهيب من إظهاره أو تزيينه.. جسدك نعم؛ ولكن ممنوع الاقتراب أو التصوير، أو تسبين بأقسى ما يمكن أن يقال: «هتكوني زي أمك... وهتجيبي لنا العار... هتموتي كافرة».

الاقتراب منه يعني اشتعال الرغبة، والرغبة عيب وحرام، جربوا قصها بالختان، ومع ذلك كلما كبتوا طبيعة الجسد فار وثار وتمرد عليهم وعلى قواعدهم.

Twitter: @ketab_n

لقد اكتشفت العادة السرية بالفطرة، مع مشاهدتي لمشهد عاطفي في فيلم، في فترة الفورة الجسدية للمراهقة. لم أستطع النوم إلا بعد أن داعبت جسدي حتى هدأته. وقتها كنت في الرابعة عشرة من عمري، لم أعرف حتى ماهية ما أقوم به، وعندما اقتربت من النشوة، ظننت أنني سأموت. تسارع دقات قلبي، وما شعرت به وقتها من سخونة وانفعال، وتلك الآهات والشهقات التي عانيت في كتمانها، كانت أشبه باحتضار، لدرجة أني خفت لحظة نشوتي، وكدت أن أتوقف قبلها. ولكن ما تبعها من الراحة والنعاس، جعلني أكرر كل ليلة ما فعلته، حتى اكتشفت من خلال قراءتي لأعداد «طبيبك الخاص» الخاصة بزوج عمتي، أنها ظاهرة معروفة تسمى العادة السرية، حسب أقوال الشيوخ تسبب العمى والعجز في المستقبل، وتغضب ربنا. وصار الاكتشاف الجميل الذي أجد فيه راحة جسدي مدعاة لتأنيب الضمير. الغريب أن الدراسات الغربية أثبتت العكس، فالعادة السرية لها فوائد ومميزات أحيانا، كما أن الإفراط فيها، كالإفراط في الطعام، له أضراره الخطيرة على الجسد.

منذ بداية الرحلة، وعقلي يعمل طوال الوقت، ولا يتوقف عن التفكير واستدرار الذكريات للحظة.لذلك قررت أن أمنح نفسي مساجًا بسيطًا لنصف ساعة أو ساعة، مع كوب من الأعشاب. ستبدو بداية عظيمة وغير تقليدية بالمرة لحياتي الجديدة. ضحكت للفكرة وأنا أدخل المكان، استقبلتني فتاة آسيوية بابتسامة رائعة، سألتها: «هل يمكنني الحصول على مساج وحمام دون حجز مسبق؟» أجابت:«بالتأكيد». يبدو المكان خاليا، وربما تكون الخدمة أرخص

Twitter: @ketab_n

قليلا مما أدفعه عادة في مونتريـال. سألتني الفتاة إذا كنت أملك فوطة أم أريد تأجير واحدة. تذكرت البشكير المصري على قمة صندوق الكتب، وأردت أن أحضر ملابس أخرى أبدلها بعد الحمام، فقلت لها «شكرا، لديّ واحدة». عرّفتني البنت على المكان، وأنا أفكر بما قرأته عن أن فانكوفر وما حولها مليئة بالآسيويين وخاصة الصينيين، لدرجة أن أطلقوا عليها«وان كوفر» كما تنطق في اللغة الصينية.

تشرح الفتاة.. «هنا البداية تجلسين في «الساونا» عشر دقائق أو ربع ساعة، بعدها تخرجين إلى هنا لتأخذي دشا باردا، ثم حمام البخار، تستطيعين أن تمكثي فيه كما تريدين، ولكن من الأفضل أن تخرجي كل ١٠ دقائق لتبريد جسدك بدش بارد. يمكنك معاودة الكرة أي عدد من المرات، وحينما تنتهي ستقوم «جالا»-تشير إلى فتاة في نهاية الممر- بإعطائك ٣٠ دقيقة من المساج المهدئ». أشارت للخزانة التي سأحتفظ فيها بمتعلقاتي، وإلى الغرفة التي سأخلع فيها ملابسي. شكرتها، وذهبت إلى الحمام لخلع ملابسي. اعتبرتها بداية جيدة، وهذا الحمام سيكون تعميدا وتطهرا لهذه البداية.كان عقليلا زال معلقا بمونتريـال، المدينة التي تحمل شوارعها أسماء القديسيين، ولكنها لا تؤمن بهم. تحديدا في شارع «سان ديني»، حيث رأيت الكنيسة التي يتم ترميمها بالقرب مع تقاطع «دولوث»، وتلك اللافتة الكبيرة التي تعلن عن سبق لم يحدث من قبل في «كيبيك».. تحويل كنيسة إلى «سبا»، حمام ومركز تجميل. كان الحدث عجيبا بالنسبة لي، حتى اكتشفت العديد من الكنائس التي تم تحويلها لمكتبات ومستشفيات ومساكن للإيجار.

Twitter: @ketab_n

ومع مضي الوقت، اكتشفت أيضا كيف يفقد معظم المهاجرين إلى كندا مع الوقت اهتمامهم بالدين، أو ربما يتحول تفكيرهم فيه إلى طريقة أكثر عالمية، فيؤمنون بكل الأديان، ويذهبون إلى فصول اليوجا للتأمل، بديلا عن الكنائس والمساجد. كان مدهشا بالنسبة لي، بعد أن رأيت في مصر الناس يرتاحون بالدين، ويلجؤون إليه في الضيق، أن أرى الناس هنا يرتاحون في البعد عنه وتجنب قيوده، وكيف يجدون توازنهم وسلامهم النفسي في عدم الإيمان بأي شيء سوى أنفسهم.

أتذكر كيف حدثني صديقي الكيبيكوا عن رغبته في أن يجمد جسده بعد موته، فأجبته ضاحكة بأن دفنه في كندا سيعني تجمده على أي حال، فرد بابتسامة مقتضبة وجدية أكبر، بأنه ينوي تأجير مكان في ثلاجة للموتى، ليتم فيها حفظ جثته لأجل غير مسمى، فربما يكتشف أحدهم يوما علاجا لسبب موته، ويعيده للحياة. يومها رددت باندهاش: «وماذا لو مت في حادث دمر معظم جسدك، أو مت بعد فترة بسبب الشيخوخة، حيث لا سبب محدد!». فيجيب الرجل باقتناع تام أن لا موت بلا سبب، وأنه يثق أن العلم سيكتشف علاجا للعديد من الأشياء، وقد يعيده للحياة يوما. أفكار مثل هذه كانت تثير اندهاشي إلى أقصى حد، وتدفعني للتساؤل عن مدى الاختلاف بين الثقافات والمعتقدات.

خلعت ملابسي، ووقفت أسفل الدش. كانت رأسي مثل ثقب أسود كبير، تختفي فيه الأفكار. ولا أعرف هل هو تأثير العري أم البخار أو اتحاد جسدي البارد مع الخشب الساخن لغرفة الساونا، أم هي تلك الموسيقى الكلاسيكية المنبعثة من أماكن لا تستطيع تحديدها،

Twitter: @ketab_n

أم هو قراري بالهروب، والذي نفذته دون أن أعرف ماهي عواقبه.

كنت أحاول أن أتخيل زوجي في فراغ البيت..ماذا سأفعل معه؟!

«لا أعرف... سأفكر وقتها، أما الآن سأختفي داخل هذا الثقب، وأنسى كل شيء، سأترك روحي تسكن قليلا، كما يسكن جسدي ويرتاح لهذا الدفء».

فردت جسدي، واستمتعت بلسعة الخشب الساخن، وفكرت كيف مع قلة الهواء بغرف الساونا نشعر بحالة حلوة تشبه «عمل دماغ»، وتزيد حالة «السطل» مع زيادة محاولاتي لتنظيم تنفسي. بعد عدة دقائق، خرجت للدش البارد، ومنه لغرفة البخار. أحب شكل البخار المتكثف على جلدي، أحب تكوينه على لوني المائل للسمرة، وأرغب في تصويره. أبدو في هذا اللحظة كزهرة تتكاثف عليها قطرات الندى. كنت أعرف أنني زهرة، ولكني لم أتعامل مع نفسي أبدا كزهرة.لقد عاملت نفسي كعود جاف، ثم عاملتها كحبة قمح.. في الأولى كنت لا أرى أي أمل من وجودي سوى الاحتراق، وفي الثانية كنت أظن أن وجودي لا معنى له سوى إشباع جوع الآخرين!.. طحنت نفسي من أجلهم، وصرت خبزًا للجائعين من الرجال، وكانت متعتي الوحيدة تتحقق بالوصول إلى لحظات نشوتهم وإشباعها، ولم أفكر أبدا في كوني زهرة وشجرة ورد، تحتاج إلى رعاية خاصة واهتمام، وأن لي عطرا مميزا، وأنني أرغب في التكاثر والتفتح في موسمي. لم أدرك هذا، حتى نمت أشواكي قوية وبرية وسوداء، وبدأت في الإعلان عن ذلك بقسوة غير معتادة.

Twitter: @ketab_n

ساعدني البخار المتكثف على جلدي في تدليكه برفق، بعدها دش جديد، ثم أشرت لفتاة «المساج» بأنني مستعدة. استلقيت أمامها عارية تماما كما ولدتني أمي، وكانت يدا الفتاة السمراء ناعمتين للغاية، وبدأ عبق الزيوت التي تستخدمها في تخديري جزئيا. كان جسدي بعد تنقله بين حالتي السخونة والبرودة يبدو كمركب ضائع وسط الأمواج، ويدا الفتاة الدافئة كانتا الميناء.

كان جسدي يفهم جيدا لغة يد الفتاة، وينصت لها باهتمام. وكانت حين تلمس طرفا من أطراف جسدي، يناديها الطرف الآخر. كنت أشعر بدمائي كلها تجري في اتجاه أصابعها. كنت قد اكتشفت في وقت سابق أن جسدي قد يكون كيانًا منفصلًا تماما عن روحي، وربما يكون له شخصيته المتفردة، التي تشارك في صنع شخصيتي الكلية، ولكنها أبدا لا تنفرد بها. كما أن جسدي وروحي يمكن لكل منهما أن يسير دون الآخر أحيانا، ولكن ليس لمدة طويلة، فالبُعد لفترة طويلة قد يخل بتوازن الاثنين. وهذا ما كنت أشعر به دومًا عندما أترك جسدي على سجيته في ممارسة الجنس والاستمتاع به مع شخص لا أحبه. كانت روحي في نفس اللحظة تحلق في مكان آخر، ولا يمكنها الاستمتاع بأي شيء في وحدتها هذه.

كان جسدي يعوي ويئن تحت يدي الفتاة، أصابعها تلج مناطق غير معروفة حتى لي أنا..صاحبة هذا الجسد وملكته، وكأني أعيد اكتشافه بعد كل مرة. بدت لي هذه الرحلة كمساج مماثل للروح، طاقة دخلت إلى كل مغاراتي المجهولة، عبثت بكل جروحي القديمة وذكرياتي المختبئة وخبراتي المنسية، حركت بحيرتي الراكدة، وأيقظت

Twitter: @ketab_n

كل الأشياء الحلوة والمرة التي نسيتها مع الوقت.

عندما انتهت الفتاة، تركتني لعدة دقائق أستعيد جسدي من هذه الحالة، أوقظه من استرخائه، وأذكره أنه يجب أن يتبع روحًا هاربة، مهاجرة كعادتها من مدينة إلى أخرى، بحثًا عن حلم جديد وأرض جديدة، قد تكون أجمل أو أسوأ... في الحقيقة هذا لم يعد مهمًا، فالأهم هو أن أجد نفسي هناك. لففت البشكير حول جسدي، واسترخيت على «شيزلونج»، وفي يدي «مج» فخاري بداخله «كاموميل»(*)، وللحظة لم أدرك من أنا، وما الذي أفعله في هذه البقعة من العالم.

في الإضاءة الخافتة، كان من الصعب تبين ملامحي في المرآة المقابلة، ولم أكن مستعدة للبحث عن مصدر الموسيقى، ولكني أحببتها، وخاصة عندما تحولت من كلاسيكية إلى دندنات عود تخلع القلب من مكانه لسبب غير معروف. إنه الشجن غير المبرر الذي يجري في دمائنا!

مع انتهاء المقطوعة الموسيقية، قررت الذهاب. ارتديت ملابسي، وكنت قد دفعت بالفعل تكاليف الخدمة من الـ «كريديت كارد»، ولكني توقفت لمنح الفتاتين بقشيشًا جيدا. نشرت البشكير على المقعد الخلفي للسيارة، بحثت في شنطتي عن «الآي بود»، قلبت ملفاته لأجد أغنية معينة، بدأت المقدمة الموسيقية، ومع خروجي للطريق السريع كنت أقود في اتجاه غروب الشمس،حين بدت السماء كلوحة من تدرجات الأحمر والبرتقالي، وأم كلثوم تقول: «غدرك بيا... أثر فيا.... واتغيرت شوية.. شوية.. اتغيرت ومش بإيديا... وبديت

(*) **الكاموميل** هو شاي من زهور البابونج، وهو مفيد للتهدئة

Twitter: @ketab_n

أطوي حنيني إليك... وأكره ضعفي وصبري عليك... واخترت أبعد... وعرفت أعند... حتى الهجر.. قدرت عليه... شوف... شوف... شوف القسوة بتعمل إيه؟؟؟» وكانت دموعي تنهمر ساخنة بلا انقطاع.

Twitter: @ketab_n

فانكوفر

«واتغيرت شوية.. شوية ... اتغيرت ومش بإيديا...»

آهٍ يا ثومة...هل كانت تعلم الست أم كلثوم وهي تغني أن هناك من سيولد بعد وفاتها بسنوات كثيرة، وسيظل يسمعها بنفس الشغف مثل كثيرين في حياتها؟ بعد هجرتي لشمال القارة الأميريكية، وتعلمي قيادة السيارات، كنت أظن أنني أخيرا وبعد أكثر من ربع قرن من وفاة الست، قد اكتشفت السبب الحقيقي وراء صنع أغانيها بهذا الشكل، ألا وهو أن توَّنس المسافرين على ترانس كندا.

فليس أجمل من أغنية للست تجعلك تقود سيارتك ساعة متواصلة، دون أن تدرك أنك تقود أو حتى تسمع أو ترى أو تشعر بأي شيء، سوى تلك الحالة التي تأخذك فيها من يدك، وتدور بك دورات متتابعة كالدراويش، فتحب أو تغضب أو تحزن أو تذوب شوقًا.

«نهاية الرحلة بعد عدة أمتار على اليمين»

Twitter: @ketab_n

هكذا قالت سيدة «الجي بي أس»، عندما وصلت أخيرا، لمركز مدينة فانكوفر»

صففت السيارة بأحد الجوانب، ووضعت عنوان بيت معروض للإيجار بشكل فوري على«الجي بي أس»، واتجهت لمشاهدته. لم يعجبني البيت للغاية، رغم أنه بيت كبير، تعيش فيه عائلة، ويريدون تأجير«بدرومه»، الذي كان عبارة عن غرفة بحمام منفصل. ولكني قررت أخذه بشكل مؤقت.

كنت في سنواتي الأولى هنا أتعامل مع العالم من حولي ككائن فضائي، وبنفس الطريقة والنظرات المندهشة التي كان يغرقني بها أصدقائي في مصر، حين أمشي لألملم الزبالة من شوارع القاهرة، لأني أريدها نظيفة، أو نفس النظرات التي يواجهونني بها عندما أحدثهم عن أحلامي في السفر والطيران،كانت تنظر لي جارتي الفرنسية، التي لا تجيد لغتي، ولكن يحب كلبها شقتي ويتسلل إليها كلما فتحت الباب.

اكتشفت مع الوقت أن إنجليزيتي سيئة أيضا، ربما تكون كافية في مدينة كشرم الشيخ، ولكنها غير كافية أبدا لحياة كاملة. لم تكن مشكلتي مع اللغة مشكلة فردية، بقدر ما كانت ظاهرة يعاني منها معظم المهاجرين، فاللغة الأم هي دوما لغة المشاعر والأحاسيس، ولغة التفاصيل الدقيقة. في السنوات الأولى للهجرة، يصبح افتقادك لها قويا جدا، ثم يقل هذا الافتقاد بتوغلك في اللغة والثقافة الجديدة.

الآن أنا أتحدث مع الرجل وأتفاوض مثل أي كندي أصلي،

Twitter: @ketab_n

ولكن كندي شرقي«كيبيكي»، وهذا يختلف تماما عن ذلك الكندي الغربي«الأنجلوفون».

أدركت بعد فترة أن «خلفيتي الثقافية والاجتماعية مثل طول عظمة فخذي(*) لا يمكنني تغييرها»، لقد ولدت في مكان أقل، أقل من إمكانياتي وأحلامي، وبسبب أهلي ومستواهم المادي وحياتهم المأساوية كنت أقل من الكثيرات حولي. فأنا سندريلا ولكن بدون ساحرة أو فستان سهرة أو عربة تجرها الخيول وحذاء أفقده فيصبح وسيلة الأمير لنجدتي. كان لديّ أمير يوما ما، ولكنه ذهب ولم يعد.

ولكني-ككل سندريلا- أعرف أنني أملك شيئا مميزا أسحر به من حولي، شيئا في كلامي وشخصيتي وابتسامتي وطموحي، يجذب من حولي، ولكنه لم يمنعهم من رؤية فستاني الممزق. والبشر بطبيعتهم يحكمون بالظواهر، لذلك لم يتوقفوا عن التحديق في رقع الفستان وقذارته، لذلك كنت دائما ما أشعر بالنقص بينهم.

هذا بجانب بعض الأشرار الفعليين، الذين يحقدون على البنت وأحلامها التي تطال السماء، لذلك يشعروني دائما بالنقص، يدفعوني لتذكر الماضي وبفستاني، حتى بعد أن غيرته لي السنين مرة بعد مرة. ورغم ثيابي الغالية، مازلت أرى في مرآة عيونهم فستاني القديم، فأشعر وكأني عارية تماما.

(*) مقولة انجليزية: Every woman should know that she cannot change the length of her calves
The width of her hips or the nature of her parents

Twitter: @ketab_n

وفوق كل هذا، كانت أحلامي الكبيرة ذاتها، غربتي الاختيارية وهجرتي إلى أرض غير الأرض، لأداري عريي بفستان جديد، اختار القدر أن يكون أسودًا محايدًا. ولكن ليس بالملابس وحدها يحيا الإنسان، فلكنتي تفضحني، توهاني في شوارع المدينة الكبيرة، وترددي أمام ماكيناتها الإلكترونية في المتاجر والمترو يخبرهم من أي عالم ثالث قد جئت. طريقة شدي لملابسي، وانتباهي لفتحة صدري تقولإني من بلاد يقتل فيها الرجال النساء من أجل غشاء بكارتهن. والخوف في عيوني يكشف لهم مطاردات الشرطة لبائعي الورد، وكيف أن ببطاقة هويتي المصرية خانة للديانة».

أين هذه الفتاة من تلك الأخرى التي تؤجر بيتا وتؤثثه الآن، يملؤها إحساس واحد، هو أنها امرأة تملك قرارها، وتعرف ماذا تريد؟! لقد جئت بالفعل من بلاد تسألني عن ديني وما أعبد، وعن أهلي وكيف كانوا، وعن جسدي وعذريته، جئت من مجتمع لا يستحي أن يفتش جسد امرأة بحثا عن دليل براءتها من تهم غير موجودة إلا بعقولهم المريضة.

قضيت مراهقتي أحاول الإجابة عن أسئلة الجميع حول انتحار أمي،وكأني أعرف! وعن إدمان أبي للمخدرات، وكأني كنت في صحبته! جئت هاربة من أسئلة لا أملك إجابتها، لتأكلني غربة أسئلة لا أستطيع فهمها، وعبارات تدور حولها ولا أجد لها معنى.

سنواتي الأولى قضيتها أتخبط كالعمياء، بين لافتات تحمل لغة أخطو فيها خطواتها الأولى. عدت طفلة من جديد، تتخبط بين حروف

Twitter: @ketab_n

الهجاء واستخدام الضمائر، كل ما أملكه عدة كلمات أساسية، لا تعبر سوى عن أشياء بسيطة وساذجة، آكل.. أشرب.. أريد.. أشعر.. مرحبا... الجو جميل.. الجو بارد.. أنا مصرية... وأتكلم القليل من الفرنسية. كنت دائما ما أسأل نفسي لماذا جئت إلى هنا، ولكني كنت أرد كيف تحاسبين نفسك على هذا، أتريدين مقارنة نفسك بشخص بدأ تعلم الفرنسية في السادسة؟ أنت التي بدأت بتعلمها في الثلاثين، هوني على نفسك، وتقبلي قدرك، اخلعي عنك كل فساتينك القديمة والجديدة، واجهي العالم بجلدك العاري، أنت امرأة قوية جدا، لا تبالي للعالم.

هناك فساتين تبدو جميلة كقطعة فنية، ولكن ليس هناك أجمل من الجلد العاري. نحن نحب الملابس لأنها تسترنا وتداري عيوبنا، ولكننا سنظل دائما أجمل في عرينا المطلق، بلون جلدنا الدافئ، وانحناءات الجسد الفاتنة. نعم الجسد فاتن، سواء جسد رجل أم امرأة، أو حتى قط أو حصان، الأجساد العارية هي قمة الجمال وفتنتها تطير العقول، أيا كانت عيوبها، تبقى عليها بصمات الروح، من دفء وقوة وحياة، وتبقى لذة لمسها، لذة لا تضاهيها أي لذة...لذة أن نكون أنفسنا.

لماذا نصب جام غضبنا على أجسادنا وأرواحنا؟ لم نحاسبها دائما على الماضي والحاضر، وحتى المستقبل.. على كوننا نساء في مجتمع مغلق، أو حتى مجتمع مفتوح؟ لم دائما ما نتمنى عائلة أخرى، وجسدا آخر؟! لما لا نتقبل قدرنا ببساطة، ونتوقف عن التفكير فيما يراه ويظنه العالم بنا؟!!!

Twitter: @ketab_n

أتذكر دهشتي الكبيرة بأجساد النساء العارية تماما بغرفة تغيير الملابس في «الجيم».ففي يومي الأول فوجئت بعدة نساء من أعمار مختلفة، يتمشين عاريات تماما حولي، في طريقهم للحمام للاغتسال، أو لغرفة الساونا، أو لوضع ملابسهن والذهاب. كان المشهد يبدو كلوحة إغريقية، من تلك الممتلئة بالأجساد العارية. لم يدهشني العري، قدر ما أدهشني تصالح هؤلاء الناس مع أجسادهم وعريهم المطلق، تغاضيهم عن العيوب والاختلافات، والتحرك بحرية تامة وعفوية. في البداية كنت أخجل من النظر حولي، وبعد فترة تحررت من خجلي كما تحررت من ملابسي مثلهن، وأصبحت حقا لا أبالي، لا بمراقبة جسدي، أو مراقبة أجساد الآخرين.

كل هذه الذكريات يا إيمي! كل هذه الحياة أصبحت وراءك الآن، وانتصارك الوحيد هو أنك لا زلت تحتفظين بروحك، بتلك البنت ذات العينين اللتين تشعان بالبهجة، حتى في أحلك الأوقات.. لا زلت تملكين مصيرك وغدك، تملكين حريتك في الرحيل، في صنع بداية جديدة وحياة جديدة، لأن كل شيء في حياتك زائل، ولن يبقى غيرك، روحك، عقلك، جسدك، عملك وما كسبته يداكِ، حياتك التي اخترتها وعشتها كما تريدين.

خطأ أم صواب... من يملك الحكم؟! الخالق وحده هو الحكم يا إيمي.. كل هذا أصبح وراءك الآن....

عادة ما نخسر الناس في الطريق، تزعجنا هذه الخسارة، نتساءل عن أسبابها، ونتمنى لو لم تحدث!.. ولكننا لا نملك أن نوقفها، لا

Twitter: @ketab_n

نملك سوى أن ننسى ونواصل طريقنا، بأمل أن نقابل آخرين يبقون معنا ولا نخسرهم ذات يوم.

ولكن هذا لن يحدث، فالحياة ليست مكسبًا وخسارة، الحياة ليست حاصل عملية حسابية أو مجرد نتيجة نهائية، الحياة الحقيقية هي الأسباب المؤدية للمكسب وللخسارة، هي التفاصيل الدقيقة في كل معادلة، هي أنت قبل أن تقابلي من قابلتهم في الطريق، وهي أنت بعد أن مررت بتجربتك معهم، الحياة ممتدة بامتداد وجودك أنت على هذه الأرض، وليست مرتبطة بوجود الآخرين أو رحيلهم عنك. أنت وحدك السر، والحياة هي ما تصنعينه بنفسك.vكل هذا وراءك يا ايمي، وأمامك بيت، بيت صغير كما أحببتِ وحلمتِ دوما، تجلسين فيه مرتاحة البال، وربما تقابلين حبا جديدا، ربما تنجبين طفلا، أو حتى العديد من الأطفال، ربما تسافرين إلى مكان آخر،وتتطوعين لتعليم الأطفال اللغة، أو حتى تبقين في فانكوفر وتبدئين حياة جديدة.

بيت دافئ برائحة القهوة والفانيليا، ثلاجة محلاة دائما بالشيكولاتة، مكتبة كبيرة من الكتب والأفلام تأخذك لعالم آخر كلما أردتِ، شارع يسعك، وعيون لا تحسب خطواتك. العالم كله يفتح لي ذراعيه، ومن كان منكم بلا خطيئة فليرمني بكل ما تطوله يده من أحجار.

مونتريـال

يناير ٢٠١٤

Twitter: @ketab_n

الفهرس

يـوسـف ١٣
إيمان ٢١
هاني ٢٩
حلا ٣٣
نهى ٣٩
مونتريـال ٤٩
القاهرة ٥٩
مون ترامبليه ٦٧
شرم الشيخ ٧٣
مون لوريه ٧٧
فال دور ٨١
تيممّينز ٨٥
كوكران ٩٥
جرين استون ١٠٣
ثاندر باي ١٠٧

Twitter: @ketab_n

انترنشيونال فولز ١١٣
وينينباج ١١٧
ريجينا ١٣٩
كالجاري ١٤٣
كـيلونا ١٥٩
ميريت ١٦٧
هوب ١٧٩
سُري ١٨٥
فانكوفر ١٩٧

Twitter: @ketab_n

حكايات عربية في مونتريـال

كنبتة عشب بين صخرتين هم المهاجرون، بين وطن لفظهم حتى ذهبوا عنه، وبين وطن آخر يحاولون الاندماج به، بين أم وزوجة أب، يظل المهاجر منا في حيرته وعذابه، بين لغة تسري في الدماء وتنتفض في لحظات النشوة والغضب داخل الأوردة، وبين لغة يتعلمها ولا يجد فيها متعته، بين بيتين وعائلتين وامرأتين أحيانا، وبين أكثر من شخصية، لكل منا غربته الخاصة المغزولة من نسج مشاعره وذكرياته عن وطن أصلي لا مكان له سوى في خياله.

إذا دخلت ذلك المقهى المونتريـالي على شارع «سان لوران» مساء أي أحد، ووجدت مجموعة من البشر يجلسون في صمت، ليستمعوا إلى نص بلغة مختلفة عن لغة المدينة الرسمية «الفرنسية»، أو لغتها الثانية «الإنجليزية»، إن لم تفهم!! سوف تستغرب هدوء هذه المجموعةوانفعالاتها، ككل المونتريـالين غير الناطقين بالعربية، فهم يجلسون في هدوء كنُسّاك في محراب عبادة، وبعد انتهاء القراءة قد تنطلق الضحكات والتعليقات والأسئلة، ستذهب لصاحب المقهى كما يحدث عادة، وستسأله: من هؤلاء؟ وماذا يفعلون؟

Twitter: @ketab_n

لو كنت عربيا، ربما ستنضم إليهم، وستتفاجأ بأن هناك عربًا من مختلف الدول العربية يجلسون، ربما لأول مرة دون أن يتشاجروا أو يختلفوا حول الهوية أو السياسة أو الدين!!

من العراق ودول الخليج والسعودية ولبنان وسوريا والأردن وفلسطين ومصر والمغرب وموريتانيا والجزائر والسودان وتونس وليبيا، ومن جيبوتي أيضا استقبلنا ضيوفا وروادا، تجمعنا اللغة والحب والود، حكايات عربية في مونتريـال، مجموعة أدبية، صالون ثقافي، نادي لمحبي الكتب، اتحاد كُتّاب، جلسة حكي أطلق عليها ما تحب من أسماء، ستظل كيانًا جميلًا يعشقه كل رواده، ووطن لكل محبي الأدب في كندا.

يشرفني أن أكون أول من بدأ الدعوة لهذه الجلسات في مايو ٢٠١١ ، ويشرفني أن تكون روايتي الأولى هي أحد إصدارات هذه المجموعة والحركة الثقافية المتميزة.

للتواصل.. صفحتنا على الفيس بوك باسم «حكايات عربية في مونتريـال» أو راسلنا على الإميل التالي:

7kayatmontreal@gmail.com

Twitter: @ketab_n

إصدارات حكايات عربية في مونتريـال

١- الاختفاء العجيب لرجل مدهش

٢- أشجان من المهجر

٣- سيزيريّن

٤- سيمافور

٥- ترانس كندا

٦- غيبوبة (تحت الطبع)

Twitter: @ketab_n

تعريف بالكاتبة

سماح صادق، كاتبة وشاعرة، ولدت وعاشت بالقاهرة، ودرست الأدب بجامعتها، حصلت على ليسانس آداب في الأدب العبري عام ٢٠٠٣، ثم استكملت دراستها بمجال الصحافة بالولايات المتحدة الأمريكية ٢٠٠٨-٢٠٠٩، وأخيرا هاجرت إلى كندا في عام ٢٠١٠. نشرت ديوانها الأول«البنت البردانة في قلبي»في يناير ٢٠١٠، عملت بالصحافة العربية وفي تحرير المواقع الإلكترونية لعدة سنوات ٢٠٠٥- ٢٠١٢. أسست في ٢٠١١ مجموعة «حكايات عربية في مونتريـال» الأدبية، وحاليا تدرس الفرنسية وتصميم الجرافيك وتعمل كمترجمة ومحررة بالقطعة لبعض الدوريات العربية، تعتبر المدينة بصخبها هي مصدر الإلهام الأول لديها، كما أثرت عليها تجربة السفر والترحال الدائم بين العديد من العوالم، مما جعلها مهتمة في كتابتها بإشكالية الهوية والحرية وحقوقها كامرأة.

للتواصل: misssamah@gmail.com

Twitter: @ketab_n

شكر خاص

إلى زوجي الغالي...

ضاوي عمار

لولاك ما أصبح لدي شجاعة لأكتب مثل هذا العمل،

وأكشف هذه المناطق الخاصة في حياة كل أنثى،

شكرا على تشجيعك الدائم،

وتذكيري دائما بأن لا سقف لحريتي سواء السماء...

سماح

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n

Twitter: @ketab_n